

اللهم صل على محمد
والعائلة الطيبة



مُحْفَوظٌ جَمِيعُ الْحَقُوقِ

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ / ٢٠٢٤م

■ هوية الكتاب

الكتاب: سلسلة القرآن يهدي ج٧:

الشيطان ذلك هو العدو

تدبر موضوعي مقتبس من موسوعة (من هدى القرآن) لـ:

سماحة آية الله العظمى المرجع الديني

السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله).

إعداد وتحرير: الشيخ مجتبي المطري

تحقيق: مركز القرآن يهدي للدراسات القرآنية

الناشر: دار المحجة البيضاء - لبنان - بيروت

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com





الشیطان

ذلك هو العدو

تدبر موضوعي مقتبس من موسوعة (من هدى القرآن)

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى

الشيخ محمد بن عبد الوهاب

إعداد وتحرير

الشيخ مجتبی المطري

اللَّهُمَّ اقْرَأْ لِي
الْقُرْآنَ كُلَّهُ

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾



تقديم سماحة آية الله العظمى المرجع الديني السيد محمد تقي المدرّسي (دام ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

لو فكّرتُ أنا، ولو فكّرنا نحن، هل تشملنا شكوى

الرسول ﷺ حيث ينادي ربّه يوم القيامة ويقول:

﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(١).

إذاً لاستبدّ بنا الجزع، ولعل الكآبة، وعقدنا العزم مجدداً أن

نتلو كتاب ربنا سبحانه حقّ تلاوته، فنقرأ ما تيسر منه آناء

الليل وأطراف النهار، ونتدبّر في آياته الكريمة، ونطبّقها على

أنفسنا أولاً.

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٠.

هكذا كان السابقون، إذا مرّوا بآية فيها ذكر النار انتفضوا منها لكي لا يكونوا من أهلها، وإذا قرؤوا آية فيها ذكر الجنة سألوا ربهم أن يتفضل عليهم بها، وإذا مرّوا بحكمةٍ أو وصيةٍ أو حكمٍ، عقدوا العزم على أن ينفذوا مفاده في واقعهم.. لعلهم يكونون ممن قال عنهم ربهم تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١).

وعند التدبّر في القرآن ترانا بحاجة إلى استجماع فكرنا جيداً والتأمل في كلّ كلمة، وفي كلّ جملة، وفي كلّ آية، وهي تحتوي على جمالات عادة.

وثمّ نساءل: ما علاقة هذه الآية وما فيها من بصائر بما قبلها وبعدها؟

وهكذا -وعبر ما نسميه بالتدبّر السياقي- قد يوفقنا ربنا تعالى في استيعاب حصيلته من المعاني.

والسؤال هل انتهى بنا المطاف إلى هنا؟

لعل هناك مرحلة أخرى هي التي نسميها بالتدبّر الموضوعي، أليس كتاب ربنا يصدّق بعضه بعضاً؟ وهكذا

(١) سورة الأنفال، الآية ٢.

وعبر التفكّر في كلّ موضوع مستفاد من آية أو من سياق آيات وذلك عبر سياقات مختلفة في كتاب ربّنا تعالى قد يوفّقنا الله تعالى للمزيد من البصائر، وإليك الأمثلة التالية:

١- الصراط المستقيم

ألَسْنَا نَدْعُو رَبَّنَا كُلَّ يَوْمٍ وَعِنْدَ تَلَاوَةِ سُورَةِ الْحَمْدِ أَنْ يَهْدِيَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، ونقول:

﴿هُدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؟

فمن هم الذين أنعم ربّنا عليهم؟ للإجابة نتلو في سورة النساء الآيات التالية:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَأَتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(١).

(١) سورة النساء، الآيات ٦٦ - ٦٩.

وهكذا نعرف صفات الذين أنعم الله عليهم من الطاعة التامة لله والرسول، ونسعى بالتوكل على الله من أجل أن نتبعهم.

ويبقى السؤال: فمن هم المغضوب عليهم؟ ثم من هم الضالون؟

فيذا قرأنا قوله سبحانه في سورة البقرة في الآية ٦١ عن صفة اليهود سنعرف من هم المغضوب عليهم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(١).

وعن الضلالة والضالين نقرأ في سورة الأعراف:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية ٦١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٠.

٢- أقل مدة الحمل

لقد استدلَّ الإمام علي عليه السلام على أنَّ أقل مدة الحمل ستة أشهر، وذلك بقراءة آيتين من كتاب الله سبحانه، حيث جاء في آية كريمة:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾^(١).

وقال تعالى في آية أخرى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَوَضْعُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٢).

لطائف وإشارات مضيئة

وهكذا كلِّمنا تأملنا في القرآن المجيد رأينا -بفضل الله سبحانه- إشارات مضيئة بالجمع بين موضوعاته، سواء في فقه معاني كلماته أو تكامل معانيه.

وها نحن بعد التوكُّل على الله تعالى وبعد أن وفقنا الربِّ سبحانه لاستلهام المزيد من البصائر عبر التدبُّر في سياقات الآيات، والتي كتبنا بعضاً منها في موسوعة (من هدى القرآن) وأيضاً بعد أن سعينا نحو قراءة آيات القرآن وتطبيقها على

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٣.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ١٥.

حقائق الواقع المعاصر عبر موسوعة (بينات من فقه القرآن) وُقِّمنا لتشكيل لجنة من العلماء لدراسة موضوعات مختلفة مما جاء في هاتين الموسوعتين وأيضاً ما جاء في موسوعة (التشريع الإسلامي) بالاستعانة بالله تعالى وبالاستئارة بالأحاديث المأثورة عن النبي ﷺ وعن أهل بيته الأئمة الهداة عليهم السلام، وإخراجها في موسوعة جديدة للتدبر الموضوعي، وقد تباركنا باسم قرآني حيث سمينا هذه الموسوعة -التي نرجو أن تكون أوسع وأجمع مما سبق- بعنوان (القرآن يهدي) ^(١) رجاء الحظوة بفضل ربنا عز وجل في الهداية.

علماً بأن هناك سبباً جعلنا نمضي قدماً في مسارين اثنين في هذه الموسوعة: جملاً وجوامع، فما هما؟

ألف: جمل التدبر الموضوعي

بما أن الكثير من الناس اليوم يبحثون عن كلمات مختصرة، ولا يتحملون عبء دراسات مفصلة فقد أعد الأخوة الكرام في (مركز القرآن يهدي للدراسات القرآنية) منظومة من الأحاديث القرآنية التي وفقنا الرب سبحانه لإلقائها على فضلاء الحوزة العلمية في مدينة كربلاء المقدسة، وبعد

(١) جاء في الآية ٩ من سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

إعدادها وتقديمها للجمهور أصبحت مساراً مميّزاً في طريق التدبر الموضوعي.

باء: جوامع التدبر الموضوعي

وتعتبر الجوامع هذه بمثابة دراسات قرآنية تشمل المزيد من البصائر من هدى القرآن وضياء السنّة الشريفة، وهي تنفع بإذن الله سبحانه للباحثين في الحقائق الدينيّة، والتي نرجو أنّ ينفع الله تعالى بها المؤمنين وبالأخص علماء الحوزات العلميّة وأساتذة الجامعات. والله المستعان.

محمد تقي المدرّسي

كربلاء المقدسة ١٧ ربيع الأول ١٤٤٥ هـ

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيد الخلق أجمعين محمد المصطفى

وآله المرضيين.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾^(١).

متى كان الميثاق الأول الذي اتخذه الربّ تعالى من جميع البشر؟ هل كان في عالم الذر أم قبل ذلك؟

المهم أننا نعرف أن الميثاق كان في عالم الذر حيث إنّ ربنا

(١) سورة يس، الآيات ٦٠-٦٢.

سبحانه وتعالى يقول عنه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾^(١).
هناك أخذ الميثاق من البشر كلهم أن لا يعبدوا إلا إياه، وبالتالي
ألا يعبدوا الشيطان.

وبالإضافة إلى ذلك فهناك ميثاق عقلي، حيث إن الإنسان
يهتدي بعقله إلى أن هناك وساوس في نفسه تدعوه إلى الشر
وعليه أن يتجنبها.

وكما أن تجارب البشر تدل كل واحد منا على أن الذين
يتبعون أهواءهم ويطيعون الشياطين هم الأخسرون في الحياة
الدنيا قبل الآخرة، ولعل ذلك ما نستفيد منه من قوله سبحانه
وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا
تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

فالميثاق الأول يستمر مع العقل ومع التجارب التي لا بد
أن يمر بها البشر، وهي كلها تدعوه إلى مواجهة إبليس وعدم
طاعته، لكن ماذا ينقص البشر إذا كان عهده مع الله وتجاربه
في الحياة وعقله كل ذلك يدعونه إلى محاربة عدوه اللدود وهو
الشيطان؟

الجواب: ينقص الإنسان العزم، فإذا أراد الإنسان مواجهة

(١) سورة الأعراف، ١٧٢.

(٢) سورة يس، الآية ٦٢.

الشیطان استطاع بالتوکل علی الله، ولكن هذه الإرادة عادةً ضعيفة عنده، وهكذا فهو مسؤول عن عمله، ولا بد أن يتحمل عاقبة ضلالتة.

ویبدو أن الصراع بین الإنسان و بین عدوه اللدود (الشیطان) هو الصراع الأول والأساسی فی حياة کل البشر، وقد يتجسد الشیطان فی شخص طاغوت أو فی المجتمع الفاسد أو فی أي صورة أخرى، إلا أن الأساس هو ذلك (الشیطان) الذي یوسوس فی نفس البشر.

بلی إن هوی النفس بالإضافة إلى شهوات الإنسان، وأيضاً الضغوط التي یجدها فی حياته إثمها جمیعها أداة الشیطان لإغراء البشر، وعلی الإنسان أن يتحدى کل ذلك؛ أي يتحدى هذا الثلاثي شهوات النفس، وأهواءه وشیطانه.

ونتساءل كيف یحتال الشیطان علی الإنسان؟

وما هي التجارب البشرية الفاشلة فی اتباع الشیطان؟

وكيف نمیز بین الشیطان الذي یحتال علی البشر و یحاول أن یخدعه و یضره، و بین عقله الذي ینهاه عن اتباعه؟

هذه أسئلة أساسية تطرح علی البشر، وعلینا ونحن نواجه هذا الخطر أن نتسلح بالوعی، وذلك بالتدبر فی القرآن الکریم

حيث يفصل لنا القول تفصيلاً كاملاً حول كيفية وسوسة الشيطان، وكيفية تفاعل النفس الأمارة، وكيفية الضلالة التي تسببها هذه المؤثرات، وعلينا أن نتدبر في الضلالة التي تتناول هذا الجزء الأساسي في حياة البشر لكي نتسلح بالوعي.

صحيح أننا مهما تسلحنا بالوعي فإنه لا يكفي؛ لأن كل إنسان يقع مرة أو مرات فريسة لمكائد الشيطان وتدليسه ووسوسته، ولكن الذين يواجهون كل ذلك بالوعي القرآني سرعان ما يعودون إلى ربهم ويتوبون وبالتالي لا يسلمون قيادتهم للشيطان دائماً، وهذا هو الأهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١).

من هنا فإن الإخوة في (مركز القرآن يهدي للدراسات القرآنية) قد بذلوا جهداً كبيراً في دراسة الآيات القرآنية التي تتناول هذا الموضوع والاستفادة من بعض التدبريات والتفاسير، واليوم حيث نقدم هذه الدراسة إلى القراء الكرام، نرجو من الله أن ينفعنا بها وأن ينفع المؤمنين، وأن يكون ذخراً للجميع ليوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

محمد تقي المدرسي

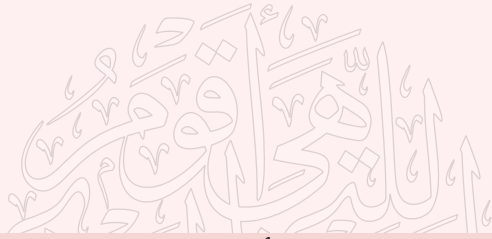
٢٠/٢/١٤٤٥ هـ

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.



الفصل الأول:

بدايات إبليس! لماذا وكيف تمرد؟



خلاصة الفصل الأول

ترى ما الهدف من خلق الشيطان؟ هل خلقه الله لأجل
إضلال البشر؟

الجواب عن ذلك بشكل مختصر: كلا، لم يخلقه الله لإضلال
البشر بل لامتحانهم، والامتحان في الحقيقة هو سنة إلهية
حاكمة للخلقة.

وقد يعتقد البعض وهو في خضم هذه البلاءات أنّ الشيطان
له سلطة حتمية ليس للإنسان فيها حول ولا طول، وكلّ ما
عليه هو أن يستسلم ويرضى، ولكن في الحقيقة هذا الاعتقاد
خاطيء؛ لأنّ غاية ما يستطيع فعله الشيطان هو ممارسة ضغوط
ضد بني آدم، من هنا فإنّ الثقافة الإسلامية تختلف عن
الفلسفات البشرية في أنّها لا تقبل ثقافة الجبر والاحتميات التي
تكبل الإنسان.

ولمن يبحث عن التكامل فعليه أن يتخلص من أمرين:

• **الأول:** هو التخلص هذه الضغوط التي يمارسها الشيطان الرجيم، التي هي عبارة عن مثيرات خارجية.

• **والثاني:** التخلص من الصفات النفسية السيئة كالكبر الذي يعتبر من الرذائل التي لو ارتكبتها الإنسان لتسافل وهوى عن مدارج الكمال التي أرادها الله له، كما تسافل الشيطان.

ولو تأملنا في الأسباب التي جعلت إبليس يهوي متسافلاً لوجدنا أنه استخدم المقاييس الزائفة في تقييم الحقائق كالعنصرية والافتخار وما أشبهه، وليس على أساس الحق والعمل الصالح، ولذا نجد أن الإسلام يحارب هذه الطريقة ويقول لنا إن كان لديك فخر فـ: «يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ التَّفَاخُرُ بِعَلِيِّ الْهَمَمِ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَمِ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْكَرَمِ، لَا بِبِوَالِي الرِّمَمِ، وَرَذَائِلِ الشِّيمِ».

من هنا كان التسليم لله وللرسالة التي أنزلها، والقيم الحقة التي فيها، هو جوهر التوحيد، وروح التعاليم الإلهية.

والسبب في ذلك هو كما أن الله هو الخالق لكل شيء ولا

اعتراض لأحد في جانب التكوين، فكذلك هو المشرع
للأنظمة والقوانين التي تسيّر الحياة في جانب التشريع، بل
ولا يحق الاقتراح أو التبديل، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ
بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وعلينا أن نعلم بأنه ليس بين الله وبين أحدٍ قرابة، فمن
أطاعه وسلّم له فقد اهتدى، ومن عصاه وتكبر عليه فقد
هوى، بغض النظر عن المكان والزمان اللذين هو فيهما.

ولذا حينما اختص الله سبحانه وتعالى نفسه بعلم الساعة
ولم يُعلم أحداً بها أعطى فرصة للخلق في ساحة الامتحان
أن يقدموا لأنفسهم ما يشاؤون، وحينما أخفى الوقت الذي
سيعاقب فيه إبليس كذلك أعطى للبشر فرصة لمحاربة الشر
والقضاء على إبليس في اليوم المعلوم.

١

ما الحكمة والهدف من خلق إبليس؟

حينما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أبى إبليس -الذي جمع معهم لعبادته- السجود تكبراً، فطرده الله بعد أن حدّر البشر منه، فقال: ﴿إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(١)، لكن إبليس اكتشف نقاط الضعف في الإنسان من حبّ للمال والسلطان، فظن في نفسه أنه قادر على إغوائه، قال تعالى: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾^(٢).

والله يؤكد أن إبليس وجد لظنونه مصداقاً بين الناس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾^(٣)، ولعلنا نستفيد من هذا التعبير أن إبليس ظن أنه سوف يتخذ من أبناء آدم نصيباً مفروضاً، ثم سعى حتى جعل ذلك الظن الذي ظنه صادقاً وذلك بإغواء الناس.

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٨.

(٢) سورة النساء، الآية ١١٨.

(٣) سورة سبأ، الآية ٢٠.

بلى؛ إن إبليس عدوٌ خطير لآته قد خطط سلفاً للإيقاع بالبشر، وسعى جاهداً لتنفيذ تلك الخطط، وهكذا اتبعه الناس أجمعون، إلا مجموعة من الناس هم الفريق المؤمن بالله واليوم الآخر.

وقال تعالى في تممة الآية: ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولا يدل هذا الاستثناء على أن الفريق الآخر من المؤمنين اتبعوا إبليس، إذ معنى ﴿مِّنَ﴾ هنا التفسير والبيان، أي اتبعه إلا فريقاً وهم المؤمنون.

ومن أهم مصاديق صرف الشيطان للإنسان عن الحق هو إضلاله عن اتباع القيادة الصادقة، وهذا ما يفسر الروايات التي جاءت مؤولة الآية الكريمة بأنها تعني القيادة الرسالية^(١). ولكن هل هو جبر الانصياع إلى أمر إبليس، حتى يبرر الإنسان انحرافه بأن لا حول له ولا طول تجاه ضغوطه وأساليبه الماكرة؟

بالطبع كلا، والله ينفي هذه الحتمية بعد الإشارة إلى عدمها، من خلال تقسيم الناس إلى مطيعين لإبليس ومخالفين له، إذ لو كانت حتمية تقضي بالخضوع له لما تمرد عليه فريق المؤمنين، فالناس إذن هم الذين يقررون طاعة الربّ أو اتباع إبليس.

(١) راجع نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٣٣-٣٣٤.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾^(١) يقهرهم به، بلى إنّ وسائل الشيطان والطغاة كثيرة وماكرة، ولكن الإنسان قادر على مواجهتها ببصيرة الإيمان، وسلاح التوكل، ولو تسلح بها لما ضعفت نفسيته، ولما ضللت وسائل الإعلام والتوجيه المنحرفة وغيرها.

والله يؤكد أنّ الهدف من خلق إبليس ليس إضلال الناس، فحاشا لله أن يريد إضلال عباده وقد خلقهم ليرحمهم، وإن أراد ذلك لما بقي أحد مؤمناً، وإنما خلقه ليمتحن الناس من خلاله، ولذا قال: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علماً فعلياً، لا الذاتي، واقعياً مستنداً لفعل العباد، قال تعالى: ﴿مَنْ يُؤْمِن بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍ﴾، وإلا فإنّ الله بكلّ شيء عليم، يعلم بمعرفته وخبرته المطلقة المؤمن من الكافر، وجاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَكِنْ لَتُظْهِرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ»^(٢).

والآية تؤكد على أنّ الإيمان بالآخرة هو حجر الزاوية في مسيرة الإنسان وتحديد مصيره، بل وفي إيمانه، وبالتالي فإنّ شكه فيها يبعثه على الشك العام في سائر الحقائق.

(١) سورة سبأ، الآية ٢١.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة رقم ٩٣.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يسجل للإنسان أو عليه كل عمل وحركة، ويحفظها في كتابه الذي يلقاه يوم القيامة منشوراً.

ونستوحي من الآية أن ثمة سلطاناً محدوداً لإبليس على بني آدم، لا يبلغ درجة الحتم بل يقف عند حدود الضغط، وأن الحكمة من إعطاء إبليس هذا السلطان المحدود ابتلاء البشر ليعرف مدى إيمانهم بالآخرة؛ فمن كان إيمانه بها ثابتاً فإنه يثبت أمام إرهاب إبليس، ومن يتبعه ويمثله من أولي القوة والثروة والتضليل، ألا ترى كيف صمد السحرة بعد إيمانهم برب موسى وهارون عليهما السلام أمام تهديد فرعون، لأنهم كانوا واثقين من اليوم الآخر، فلم يفلح إبليس وخليفته فرعون من النيل من صلابتهم شيئاً.

تعالوا لنقرأ في آيات القرآن قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأَصْلَبَنَّتْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ قَالُوا لَا صَيرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

(١) سورة الشعراء، الآيات ٤٩-٥٠.

وهكذا كلّ من تعرض لضغط أولياء الشيطان عليه أن يتذكر الآخرة ليصمد أمامهم، وهذا التجلي الأول للثقافة التبريرية في الآيات؛ أي (الحتمية).

٢

لماذا عصى إبليس؟

جاء في الأحاديث الشريفة أن التعبير القرآني الذي استخدم ضمير الجمع في قول الله تعالى: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾^(١) دليل على واقعة الذر، حيث خلق الله عز وجل البشر جميعا بصورة (ذر) في صلب آدم، ولذلك جاءت كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على الترتيب.

ولكن ما هي الصفة التي كانت في إبليس، فمنعته عن السجود بعد ما جاء الأمر الصريح؟

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾^(٢) استخدم القرآن التعبير بكلمة ﴿أَلَّا﴾ بدل (أن) ربها للإشارة إلى أن صفة المنع لم تكن آنية أو محدودة بهذا العمل، بل كانت مرتبطة بالطاعة على العموم، أي ما منعك عن الطاعة أَلَّا تسجد .

(١) سورة الأعراف، الآية ١١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٢.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾؛ لقد كان جواب إبليس واضحاً، لقد كان سبب عصيانه العنصرية، والزعم بأنّ عنصره أفضل من عنصر آدم ﷺ.

وعموماً هناك مقياسان للإنسان: إمّا مقياس الذات، وإمّا مقياس العمل الصالح؛ فإذا كان مقياس الشخص هو ذاته، فإنّه سوف لا يقف عند حد في جريمته، لأنّه لا يرى شيئاً أقدس من ذاته أو أعلى من نفسه، ومن هنا فإنّ جذر كلّ المشاكل البشرية، هو: تفوق الإنسان في ذاته، واعتقاده بأنّ ذاته هي المقياس، وما الإقليمية، والقومية، والعشائرية، وكل الحواجز الذاتية ما هي سوى آثار لهذه العنصرية المقيّنة.

ولكن مقياس الحقّ هو: مقياس العمل الصالح، لا فرق بين عامله من يكون؟ ومن أي عنصر؟ لذلك أخرج الله إبليس من جنته.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي من السماء أو من الجنّة، وتدل كلمة الهبوط على الهبوط من مكان أعلى، ومن الطبيعي أن يكون هبوط إبليس ليس مادياً فحسب، بل ومعنوياً أيضاً، ولذلك عاد القرآن واستخدم كلمة الإخراج أيضاً، قال تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

وهكذا كانت الخطيئة الأولى بسبب الاعتماد على العنصر،
والذي تجسد في صورة التكبر عن الحق، ومن ثمّ كان الجزاء
الهوان، ولذا حينما سئل الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: أي
الأعمال أفضل عند الله؟ قال: «**مَا مِنْ عَمَلٍ بَعْدَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ
جَلَّ وَعَزَّ وَمَعْرِفَةِ رَسُولِهِ ﷺ أَفْضَلَ مِنْ بُغْضِ الدُّنْيَا، وَإِنَّ لِدَلِّكَ
لَشُعْبًا كَثِيرَةً، وَلِلْمَعَاصِي شُعْبًا، فَأَوَّلُ مَا عُصِيَ اللَّهُ بِهِ الْكِبْرُ، وَهِيَ
مَعْصِيَةُ إِبْلِيسَ حِينَ ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾**»^(١)»^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية ٣٤.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٣١٧.

٣

بين سجود الملائكة وتمنّع إبليس

في الآيات الأخيرة من سورة ص، وكعادة القرآن يؤكد السياق على الموضوع الأساسي للسورة - حسب ما يبدو - وذلك ضمن بيان ما جرى بين ربّ العالمين والملائكة، ثمّ بينه وبين إبليس، ومغزاه الكشف عن طبيعة الإنسان، والأسباب الحقيقية التي ترديه، فإذا به - وقد كرمه الله على كثير من الخلق - ينتهي إلى أسوأ مصير.

في بداية السورة أكد ربّنا على دور العزة والشقاق في ضلال الكفار، حيث يغترون بها لديهم من قوّة ظاهرية، فيستكبرون على الحقّ ويشقون عصا الطاعة لله عزّوجلّ، بينما نجد في مقابلهم أنبياء الله ﷺ فهم بالرغم من الدرجة المعنوية التي أعطيت لهم النبوة وما أوتي بعضهم من القوّة والملك، إلا أنّهم في أعلى درجات التوبة والإنابة إلى ربّهم.

وفي نهاية هذه السورة المباركة بيّن الله لنا صورة أخرى لهذه

المقابلة جرت في الملأ الأعلى، فالعزة بالباطل عند إبليس عليه اللعنة، الذي اعتز بعنصره، ورفض الخضوع لله في قضية آدم من بين كل الملائكة، وبرر ذلك بأنه - وهو المخلوق من نار السموم - أفضل من آدم الطيني فكيف يسجد له؟ ولكن من قال: إن الأفضلية للطين؟ ثم لو افترضنا ذلك فهل هذا مبرر لمعصية رب العالمين واختيار عاقبة السوء؟ بالطبع كلا، ولكن إبليس اختار العزة بالباطل متمثلة في العنصرية، ثم راح يغوي الإنسان ويضله ليكون معه في غضب الله وناره.

وفي المشهد الآخر من السورة نجد ملائكة الله - على جلالته قدرهم - يخرون ساجدين لآدم تعبداً لله وطاعة وتسليماً، ويوصل القرآن بينهم وبين عباد الله المخلصين الذين لم يسمحوا لإبليس أن يغويهم.

ولأن سورة ص تشابه وسورة الصافات في نفي ألوهية الملائكة والأنبياء ﷺ، فإنها تنتهي ببيان سجود الملائكة لآدم ﷺ الذي خلق من طين والذي يتعرض لإغواء إبليس، وكيف يكون إلهاً من يسجد لغيره، أو يتعرض لإغواء الشيطان؟!!

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ

سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ
 اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ
 تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾
 قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾
 قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى
 يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
 مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
 لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ
 فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ
 مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا
 مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ
 بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴿٢١﴾.

أنى لمن خلق من طين أن يفتخر بنفسه!؟

لما بدأ الله تعالى خلق آدم أطلع الملائكة على هذه الإرادة كما
 في قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾
 والخطاب هنا يشمل حتى إبليس، لأنه قد رفع جزاءً لعبادته
 لله إلى مقام الملائكة، فملائكيته التي يشملها (إبليس) بموجبها
 الأمر بالسجود - اعتبارية لا ذاتية - ويبدو أن متعلق قوله:

(١) رجيم، طريد مبعّد.

(٢) سورة ص، الآيات ٧١-٨٨.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ هو قوله في آية سابقة: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وبما أن أصل خلق البشر طين فلا يجوز أن يتفاخر الناس على بعضهم، كما لا ينبغي أن يفتخر أحد بنفسه وهل لمن أصله الطين فخر؟! جاء في الحديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «عَجَبًا لِلْمُخْتَالِ الْفَخُورِ، وَإِنَّمَا خَلِقَ مِنْ نُظْفَةٍ ثُمَّ يَعُودُ حَيْفَةً، وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَا يَدْرِي مَا يُصْنَعُ بِهِ»^(١).

والطين عندنا نحن البشر من أرذل العناصر وأقلها قيمة واعتباراً، والناس جميعاً خلقوا من طين فلا يجوز أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله كالسلاطين، ولا أن يصبغ البعض صبغة الألوهية على بعض كما فعل النصارى بابن مريم عليه السلام.

لماذا جاء الأمر بالسجود بعد نفخ الروح؟

ولم يطلع ربنا الملائكة على ما بداله لمجرد إضافة معلومة جديدة إليهم بل ليأمرهم بالسجود له عليه السلام فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وقد اتصل الأمر بالسجود بحالة التسوية ونفخ الروح عند البشر، وهي حسب الظاهر كمال الخلق مما يوحي بأن سجود الملائكة الذي يدل - ضمناً -

(١) الكافي، ج ٢، ص ٣٢٩.

على تسخير الطبيعة الموكل بها ملائكة الله^(١) يتعلق بكمال الإنسان، فكلما رقى البشر معارج العلم والإرادة والإيمان والتقوى سخرت له الخليفة أكثر فأكثر، أرأيت كيف سخر الله لداود عليه السلام الجبال والطير، ولسليمان عليه السلام الريح؟

ويوحى نفخ الروح من الله في الإنسان وقبل السجود له تخصص البشر بميزات لا توجد في سائر الأحياء، ويبدو أنّ الروح هنا هي العقل الذي قال عنه ربنا سبحانه في آية أخرى: قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٢)، ولذا جاء عن عبد الله بن سنان، قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال عليه السلام:

«قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إن الله عز وجل ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليتهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم»^(٣).

وحديث آخر عنه عليه السلام عن آبائه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) راجع تفسير سورة البقرة الآية ٣٤، في موسوعة من هدى القرآن.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٢٩٩.

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَثَلِ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مُؤْمِنٍ تَائِبٍ أَوْ مُؤْمِنَةٍ تَائِبَةٍ»^(١).

قال تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وهكذا أسس ربنا في حياة البشر مبدأ السجود لله عبر الخضوع والتسليم لخلفائه في الأرض، وهؤلاء الملائكة وهم من أعز خلق الله أسجدهم لمن نفخ فيه من روحه وجعله خليفته في الأرض.

سجود الملائكة آية تسليمهم

وحيث أمر الله بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ استجاب جميع الملائكة إيماناً منهم بوجوب التسليم المطلق له عز وجل، وأن أي اجتهاد أو قياس مقابل أمره باطل ولا يرفع المسؤولية عن صاحبه.

قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ﴾ وكان يكفي أن تنتهي الآية إلى هذا الحد لتبين المطلوب، ولكن ربنا أضاف تأكيداً لذلك قائلاً: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ وإنما كانت عظمة الملائكة بخضوعهم لله ولمن أمر الله بالخضوع له.

جاء عن الإمام عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في جواب مسائل الزنديق حينما سأله: أيصلح السجود لغير الله؟

(١) بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٢٩٩.

قال ﷺ: «(أ)».

قال: فكيف أمر الله الملائكة بالسجود؟

فقال ﷺ: «إِنَّ مَنْ سَجَدَ بِأَمْرِ اللَّهِ فَقَدْ سَجَدَ لِلَّهِ، فَكَانَ سُجُودَهُ لِلَّهِ إِذْ كَانَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ»^(١).

واستكبر إبليس وكانت قصة العصيان

ثم استثنى ربنا من الساجدين إبليس الذي استكبر واستبدت به العزة والكبرياء، وهو استثناء منقطع، فشق عصا الطاعة، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

لقد كان إبليس يسجد لله سجداً طويلة لعل بعضها يمتد أربعة آلاف عام كما جاء في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين ﷺ في جوابه على أسئلة الزنديق المدعي للتناقض في القرآن: «الْإِيمَانُ بِالْقَلْبِ هُوَ التَّسْلِيمُ لِلرَّبِّ، وَمَنْ سَلَّمَ الْأُمُورَ لِمَالِكِهَا لَمْ يَسْتَكْبِرْ عَنْ أَمْرِهِ، كَمَا اسْتَكْبَرَ إِبْلِيسُ عَنِ السُّجُودِ لِأَدَمَ، وَاسْتَكْبَرَ أَكْثَرُ الْأُمَمِ عَنْ طَاعَةِ أَنْبِيَائِهِمْ، فَلَمْ يَنْفَعَهُمُ التَّوْحِيدُ كَمَا لَمْ يَنْفَعِ إِبْلِيسَ ذَلِكَ السُّجُودُ الطَّوِيلُ، فَإِنَّهُ سَجَدَ سَجْدَةً وَاحِدَةً أَرْبَعَةَ أَلْفِ عَامٍ لَمْ يَرِدْ بِهَا غَيْرَ زُخْرُفِ الدُّنْيَا وَالتَّمَكِينِ مِنَ النَّظَرَةِ، فَكَذَلِكَ لَا تَنْفَعُ الصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ إِلَّا مَعَ الْإِهْتِدَاءِ إِلَى

(١) وسائل الشريعة، ج٦، ص٣٨٧.

سَبِيلَ النَّجَاةِ وَطَرِيقَ الْحَقِّ»^(١).

وقد اقترح على الله أن يسجد له سجدة مطولة بدل سجوده لحظات لآدم، فرفض طلبه، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «أَمَرَ اللَّهُ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَقَالَ: يَا رَبِّ، وَعَزَّتْكَ إِنْ أَعْفَيْتَنِي مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ لِأَعْبُدَنَّكَ عِبَادَةً مَا عَبَدَكَ أَحَدٌ قَطُّ مِثْلَهَا، قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَطَاعَ مِنْ حَيْثُ أُرِيدُ»^(٢).

فلماذا هذا الاقتراح؟ ولماذا الرفض؟

• **أولاً:** السجود لآدم بأمر الله - ذلك الطين اللازب الذي يحتقره إبليس - هو معيار الخضوع لله وليس مجرد الوقوع على الأرض باسم السجود لله، ولعل صاحبه يكرس ذاتياته بذلك، وإنما يفعل ما يفعل رياءً، ولا يزيده إلا عجباً. وهكذا نحن البشر لا نتفعلنا عامة الصلاة والصيام إن لم نسلم لمن أمر الله بالتسليم لهم من خلفائه في الأرض، وهكذا كانت الولاية سنام الدين، وعمود الشريعة، وأعظم ما في ميزان العبد يوم القيامة لأنها في الحقيقة هي التوحيد الخالص.

(١) بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٢٣٥.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٤٥.

• **ثانياً:** حين لم يسجد إبليس لآدم عُدَّ مستكبراً، وألحق بالكفار بالرغم من أنه كان يؤمن بالله، ولكن إيمانه لم يبلغ درجة التوحيد إذ إنه كان يؤمن قبلئذ بذاته وبعنصره الناري، فلم ينفعه الإيمان ولا سجدياته الطويلة شيئاً.

فسأله رب العالمين: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾، وللمفسرين في كلمة ﴿بِإِيْدِي﴾ تفاسير عديدة، أمّا التفسير الأقرب للسياق - في نظري - أمّا القدرة، لأنّه سبحانه لا يملك يميناً ولا شمالاً، وفي حديث عن الإمام الرضا عليه السلام: «يَعْنِي بَقُدْرَتِي وَقُوَّتِي»^(١).

وتعبير اليدين كناية عن تمام القوّة والقدرة التي تجلت في خلق آدم فالاستكبار وقع على شيء صنعته القدرة الإلهية، فقال تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ هل كان السبب أنك تكبرت لمجرد الاستكبار ومن دون سبب واقعي، أم أنك فعلاً تجد نفسك جديراً بعدم السجود؟ بمعنى أن فرض كونه من العالين ينفي عنه صفة الاستكبار للترديد بينهما. ولما كان من غير العالين فهو مستكبر.

أمّا العالين فهم الأشباح المحدقة بساق العرش، كما جاء

(١) عيون الأخبار، ج ١، ص ١٢٠.

عن أبي سعيد الخدري قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ أقبل إليه رجل فقال: يا رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، فمن هم يا رسول الله الذين هم أعلى من الملائكة؟

فقال رسول الله ﷺ:

«أَنَا وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةٌ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ كُنَّا فِي سُرَادِقِ الْعَرْشِ نُسَبِّحُ اللَّهَ وَنُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةَ بِتَسْبِيحِنَا قَبْلَ أَنْ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ بِالْفِي عَامٍ؛ فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْنَا بِالسُّجُودِ، فَسَجَدَتِ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ فَإِنَّهُ أَبِي أَنْ يَسْجُدَ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أَي مِنْ هَؤُلَاءِ الْخَمْسِ الْمَكْتُوبِ أَسْمَاؤُهُمْ فِي سُرَادِقِ الْعَرْشِ»^(١)، وقال البعض أن معناه: هل استكبرت الآن أم كنت أبداً من العالين؟

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٤٢.

٤

إبليس و المقاييس الشركية

إنّ عدم سجود إبليس كان لاستكباره، وإلّا فجوهه في واقع الأمر لا يتميز عن آدم فهو مخلوق مثله، ولا يحق للمخلوق أن يرفض أمر الخالق، ولكن إبليس رأى نفسه متميزاً.

وسبب ذلك أنّه اتبع المقاييس الشئئية لا المقاييس القيمة فانتهى إلى أفضلية النار على الطين، واعتز بعنصره وذاته، فرفض السجود لآدم و الطاعة لله سبحانه، وهذا يدل على بطلان القياس عموماً، ذلك لأنّ قيمة أي شيء ليست بذاته بل بما يضيفي عليه الربّ من قيمة واعتبار، فالصلاة معراج المؤمن لأنّ الله جعلها كذلك، والحج جهاد الضعفاء لأنّ الله شرع ذلك، والأنبياء ﷺ خلفاء الله لأنّ الله حملهم رسالاته وجعلهم أئمة وهداة.

ولا يعرف تشريع الله إلّا من عنده، أمّا البشر فإنّه إذا أراد أن يتشبث بالقياس فسوف يهبط إلى مستوى مقاييسه الشئئية فهذا

إبليس برغم علمه وعبادته هوى إلى أسفل السافلين حين ترك قيمة التوحيد إلى الشرك، ومقياس أمر الله إلى مقياس خلق الله، ولم يعرف أنّ عظمة خلق الله إنّما هي بأمر الله، فالنار كنار لا تعدو أن تكون خلقاً خلقها الله بأمره، وأركز فيها خصائص وميزات من الحرارة والإضاءة، وإن شاء الله أعدمها أو أعدم حرارتها، كما فعل لإبراهيم عليه السلام، أو أزال ضوءها كنار جهنم، إذن الشيء كشيء لا قيمة له، إنّما قيمته باعتبار أمر الله، وهذا هو السبب الجوهرى لبطان القياس في الدين، والحاجة إلى الرسل عليهم السلام.

ورد في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ إِبْلِيسَ قَاسَ نَفْسَهُ بِأَدَمَ فَقَالَ: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، فَلَوَّ قَاسَ الْجَوْهَرَ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ أَدَمَ بِالنَّارِ كَانَ ذَلِكَ أَكْثَرَ نُورًا وَضِيَاءً مِنَ النَّارِ»^(١).

قال وهو يبرر موقفه المنحرف: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» فهو يرى أنّه أفضل من آدم عليه السلام لا بالعمل الصالح والطاعة والعبادة المخلصة بل بعنصره الناري، قال تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ إنّ المهم في الخلقة ليس المخلوق بذاته، بل ما يعطيه الخالق من قيمة ومنزلة، ومادام الربّ واحداً فإنّ

(١) الكافي، ج ١، ص ٥٨.

قيمة المخلوقين من الناحية الجوهرية واحدة، وإنما يتفاضلون بها يحدده الربّ من مقاييس للتفاضل، وليس ثمة قيمة عند الله لأحد بذاته، إنّما تقواه وعمله الصالح.

جاء في نهج البلاغة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَبَسَ الْعِزَّ وَالْكَبرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمَى وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ، وَاصْطَفَاهُمَا لِحَالِهِ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ، ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: ﴿إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴿٧٤﴾ اعْتَرَضْتُهُ الْحَمِيَّةُ، فَافْتَحَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَضْلِهِ، فَعَدُوُّ اللَّهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ وَسَلْفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصْبِيَّةِ، وَنَازَعَ اللَّهَ رِذَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّنْذِيلِ، أَلَّا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبُرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرْفُوعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَذْحُورًا، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا.

وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُؤَاؤُهُ، وَطِيبٌ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً وَلَخَفَّتِ الْبُلُوى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ

سُبْحَانَهُ يَتَّبِلِي خَلْقَهُ بِنِعْضٍ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ تَمَيِّزاً بِالِاخْتِبَارِ
لَهُمْ، وَنَفِيًّا لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِنْعَاداً لِلْخِيَلَاءِ مِنْهُمْ.
فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ
وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرَى أَمِنْ
سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ، عَنْ كِبَرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَنْ ذَا بَعْدَ
إِبْلِيسَ يَسْلُمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ، كَلَّا، مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَرًا بِأَمْرٍ أُخْرِجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكًا، إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ
السَّمَاءِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ لَوَاحِدٌ، وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ
هُوَادَّةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمَى حَرَمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ»^(١).

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٢.

٥

عاقبة التمرد على إرادة الربّ تعالى

لماذا يتمرد البشر عن مسؤولياته؟

وما هو جزاء المتمردين؟

وما هو جذر الشرك بالله؟

لنعد إلى قصة الخلق الأول: فمن عرف البداية هدي إلى العاقبة، نتذكر قول الله للملائكة: اسجدوا لآدم، فسجدوا ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ وعلا بغير حقّ، فقال: أنا نار ﴿أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾، فلما لعنه الله، قال: سترى كيف أضلّ ذرية هذا الذي كرمته عليّ إن أخرجتني إلى يوم القيامة، إلّا قليلاً منهم، وأنذره الله ومن تبعه إنّ جزاءهم جهنم جزاءً وافياً.

وبالرغم من أن الشيطان سوف يستفزهم بالتضليل، ويرهبهم بجيشه، ويتداخل معهم فيشاركهم في الأموال والأولاد ويحذرهم بوعود كاذبة، فإنّ عباد الله سوف يتحدّونه بعون الله، وبالتوكّل عليه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾. والله يملك

كلّ شيء ومن يعرفه ويتوكّل عليه فهو حسبه.

فهو الذي يزجي السفن في أعالي البحار لمصلحة البشر،
رحمة بهم، أمّا إذا أحسوا بالضراء في البحر وغاب عنهم آلهتهم
التي كانوا يشركون بها فإنّ يد الله تنجيهم من ورطتهم،
بالرغم من أنّهم يعرضون عنه إذا وصلوا إلى الشاطئ آمنين،
ويقابلون رحمة الله، بالكفر بدل الشكر، دون أن يتذكروا أنّ
الله قادر على أن يخسف بهم جانب البر، أو يرسل عليهم ريحاً
تقذفهم بالحجارة، فلا يجدون وكيلاً يدافع عنهم، أو يخشوا
العودة إلى البحر فتحيط بهم عواصف تغرقهم بكفرهم ولا
أحد يطالب بثأرهم.

لقد كرّم الله بني آدم، وأسجد لهم الملائكة، وحملهم في البر
والبحر، ورزقهم من الطيبات، وفضّلهم على كثير ممن خلق
تفضيلاً ووعدهم بالنصر في مواجهة الشيطان الذي يقف لهم
بالمرصاد!

٦

الإِنسان بين كرامة التوحيد وغرور الشيطان

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

إبليس يتحدى سلطان الحق

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ في الآيات الواردة في سورة البقرة، والتي تتحدث عن ذات الموضوع، أن سجود الملائكة يرمز إلى تسخير الخليفة للإنسان، لأنَّ كلَّ طبيعة في الكون لها ملك موكل بها، فهناك ملك للمطر، وهناك ملك للريح، وآخر للبحار وملائكة للنهار وملائكة لليل و... و..

(١) سورة الإسراء، الآيات ٦١-٦٣.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، يبدو أن إبليس كان عنصرياً لأنه حيث زعم أن العنصر الناري أفضل من العنصر الترابي، ولم يعلم بأن العنصر الترابي ليس بشيء، لولا تكريم الله له بتلك القدسية التي نفخها الله فيه، منحه العقل والإرادة، وكذلك عنصر النار فقيمه مستمدة من الخلق الإلهي ليس إلا.

ولئن رأى في النار مجداً، ففي التعليم الإلهي الذي هو سبيل إخضاع الطبيعة ميزة في هذا المخلوق الترابي.

إبليس يتوعد بني آدم بالاحتناك

قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ قالوا: معنى هذه الكلمة أخبرني، ولعل معنى الكلمة هل ظننت أنك تغلبنني، وفيها نبرة التحدي والتمرد، وكان أسلوب اللعين بعيداً جداً عن مقام رب العالمين، إذ كان أسلوبه أسلوب تحد على من كرم الله، وكأنه كان يقول: ستعلم ما أفعل بهذا الذي كرمته عليّ وأمرتني بالسجود له!

﴿لَئِن أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي أمهلتنني حتى يوم

القيامة لترى ماذا أعمل!

﴿لَأُخْتِنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ما هي غاية إبليس؟

هدف إبليس أن يحتنك بني آدم، والاحتناك^(١)، كما قال المفسرون له معنيان:

• **أولاً:** الأخذ من العنق: أي سوف أسوق بني آدم سوق البهائم.

• **ثانياً:** الاستئصال: أي لأستولين عليهم بالكامل.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ممن يتبع عقله، وهذا قول الشيطان، ويبدو من هذا الحوار أن إبليس يقول: أنا أقوى من آدم، أنت كرمته عليّ، بيد أني سوف أدخله النار.

﴿قَالَ أَذْهَبُ﴾ أعطيتك الفرصة والمهلة، ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾.

إنّ الله خلق الجن والإنس ليعبدوه، وكرم بني آدم وأهله لعبادته، أمّا إذا خرج عن حده ووقع في خط الشيطان، أنذ يسحب الله الكرامة منه ويدخله جهنم هو وجنود إبليس أجمعين.

وهكذا فإنّ إبليس من أشد الأعداء خطورة على ولد آدم جاء في الدعاء:

(١) قالوا: احتنك فلان ما عند فلان من مال: استقصاه وأخذه بالكلية، واحتنك الجراد الزرع: أكله بالكلية.

«إِلَهِي أَشْكُو إِلَيْكَ عَدُوًّا يُضِلُّنِي، وَشَيْطَانًا يُغْوِينِي، قَدْ مَلَأَ
بِالْوَسْوَاسِ صَدْرِي، وَأَحَاطَتْ هَوَاجِسُهُ بِقَلْبِي، يُعَاضِدُ لِي الْهَوَى،
وَيُزَيِّنُ لِي حُبَّ الدُّنْيَا، وَيَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّاعَةِ وَالرِّفْقَى»^(١).

إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى زُودَ الْإِنْسَانَ بِالْإِرَادَةِ وَالْعَقْلِ
وَأَعْطَاهُ مَزَايَا عَدَّةً، كَيْفَ؟ تَعَالَوْا نَسْتَمِعْ إِلَى هَذَا الْحَوَارِ.

عَنْ زُرَّارَةَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «لَمَّا أَعْطَى اللَّهُ
إِبْلِيسَ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْقُوَّةِ قَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ سَلَّطْتَ إِبْلِيسَ عَلَيَّ
وُلْدِي وَأَجْرَيْتَهُ مِنْهُمْ مَجْرَى الدَّمِّ فِي الْعُرُوقِ، وَأَعْطَيْتَهُ مَا أَعْطَيْتَهُ
فَمَا لِي وَلِوُلْدِي؟

قَالَ عَزَّوَجَلَّ: لَكَ وَلِوَلْدِكَ السَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ
أَمْثَالِهَا.

قَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ زِدْنِي.

قَالَ: التَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ إِلَيَّ أَنْ تَبْلُغَ النَّفْسُ الْحُلُقُومَ.

قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي.

قَالَ: أَعْفِرْ وَلَا أَبَالِي»^(٢).

(١) بحار الأنوار، ج ٩١، ص ١٤٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٤٢.

٧

لا جبر على المعصية ولا حتمية للشر

إن انحراف إبليس لم يكن بجبر من الله إنما باختياره هو نفسه، ومن الحوار الذي جرى بين الله وبينه يتبيّن أنّه تعالى أراد هدايته فقد أكثر القول له.

وهذا أساس في القرآن والرسالات الإلهية الأخرى، لأنّ الفلسفات الأخرى - القديمة والحديثة - كلّها تعتقد بالجبر، وأن الشر من الله - تعالى عما يصفون - أو من إله معارض له في الرأي، مساو له في القوّة، وهذه الثنائية موجودة بصورة أو بأخرى في كلّ الفلسفات كالفلسفة الشيوعية التي تؤمن بثنائية الحتمية التاريخية، أو كالفلسفة التي تعتقد بالثنائية الجنسية .. الخ.

وقد تسربت هذه الفلسفة المنحرفة إلى كثير من كتب الديانات، ولكن هذه الآيات - وأخرى كثيرة تلتقي معها في الموضوع - تبين أنّ إبليس كان حراً في إطار قضاء الله وقدره،

فهو غير قادر على مقاومة الإرادة الإلهية إذا أراد الله ذلك،
لكنها من جانب آخر تؤكد بأنه تعالى لم يجبره على المعصية
والانحراف، بل أعطاه المهلة وحاوره في الأمر إقامة للحجة
لعله يهتدي للحق سبيلاً.

٨

كذلك تم طرد إبليس

لما رفض وأصر إبليس على معصيته واعتزازه الباطل بعنصره، طرده الله من رحمته، واسترد منه الاعتبار الذي وهبه له من قبل، فقال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

والرجيم هو المطرود الذي لا أمل في رجعته، وربما لو كان ثمة احتمال لعودة إبليس للحق لما أخرجه الله من رحمته، وربما أمهله أكثر مما أمهله.

عن عبد العظيم الحسني قال: سمعت أبا الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام يقول: «مَعْنَى الرَّجِيمِ أَنَّهُ مَرْجُومٌ بِاللَّعْنِ، مَطْرُودٌ مِنَ الْخَيْرِ، لَا يَذْكُرُهُ مُؤْمِنٌ إِلَّا لَعْنَهُ، وَأَنَّ فِي عِلْمِ اللَّهِ السَّابِقِ إِذَا خَرَجَ الْقَائِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَبْقَى مُؤْمِنٌ فِي زَمَانِهِ إِلَّا رَجَمَهُ بِالْحِجَارَةِ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مَرْجُومًا بِاللَّعْنِ»^(١).

وفي القرآن آية تشير إلى الحكمة الإلهية التي مر ذكرها،

(١) بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٢٤٢.

يقول تعالى في معرض حديثه عن عصيان إبليس: ﴿وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ
فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(١).

والآية تشير إلى أنه كان جنياً ولكنه استطاع الوصول إلى
مقام الملائكة، وذلك بعبادته وسعيه - كما في الروايات - ثم
تشير إلى ترديه ومسيرته التنازلية وأن سببها المعصية لله، وتأکید
الآية على كونه من الجن يهدف تأكيد حرته واختياره، وكيف
أنه علا إلى مقام الملائكة بعمله ثم أهبط بسوء اختياره.

(١) سورة الكهف، الآية ٥٠.

٩

كيف عاتب الربّ إبليس العاصي؟

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١).

هاتان الآيتان من سورة ص المباركة تبيان جانباً من العقوبات التي فرضها الله على إبليس، وهي:

• أولاً: سحب المزايا

سحب المزايا والاعتبارات التي حصل عليها بعبادته كدخوله الجنة، واعتباره من الملائكة، وشمول رحمة الله الخاصة له.

• ثانياً: رجمه من قبل الله

الرجم كما يبدو هو الطرد الذي لا سبيل للعودة بعده - كما مرّ آنفاً - فهو مبعّد عن سائر الخلق، ومعنى ذلك أنّهم لا يتفاعلون معه، وهذه حقيقة علمية

(١) سورة ص، الآيات ٧٧-٧٨.

يشرحها القرآن بعبارات بسيطة جداً، يفهمها حتى الطفل المميز، لأنّ هدف الآيات هو هداية الإنسان إلى الحقّ، والتي لا تتحقق بالعبارات الغليظة المعقدة التي لو استخدمها في القرآن لكان لطبقة معينة.

وهذه الحقيقة العلمية تتمثل في أن عالم المخلوقات يتفاعل مع الحقّ ويتعاون معه، أمّا الشر والباطل فهو شذوذ وشقاق عن مسيرته، وحيث طرد إبليس - وهو رمز الشرك - بالرجم فإنّه لا يكون معه ما في السماء والأرض وما بينهما.

إنّ الأصل في الخلائق الخير لا الشر، والذي يطيع إبليس فإنّما يطيع عنصراً ضعيفاً، والقرآن يصرّح بهذه الحقيقة عندما يقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾^(١)، ومن هذا المنطلق جاءت حتمية الانتصار للمؤمنين الصادقين على أعدائهم، ولهذا أيضاً قال ربّنا: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾^(٢)، ذلك بأنّ الذي

(١) سورة النساء، الآية ٧٦.

(٢) سورة ص، الآية ٢.

يخالف مسيرة الكون هم الكفار الذين ينحرفون عن فطرتهم فهم هالكون، وقد حذرهم الله في سورة ص من ذلك، وقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلاَتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾^(١).

كما أكد مخالفة الطبيعة لمسيرتهم، وهزيمتهم الحتمية بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾^(٢) جُنْدُ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ^(٣).

• ثالثاً: أبعاد اللعنة الأبدية التي لاحقت إبليس

إلحاق اللعنة به إلى يوم الدين من قبل الله سبحانه، واللعنة تعبير عن عدم الرضا بشخص الملعون وعمله، وهي تعني:

- **ألف:** عدم شرعية أعمال إبليس وأتباعه مهما أخذت أحجاماً كبيرة على الطبيعة مؤقتاً.
- **باء:** ملاحقة الشيطان وأتباعه بالعذاب، وبالخذلان، وإحباط العمل، ﴿وَإِنَّ عَلَيْنَكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، وفي يوم الدين يكون

(١) سورة ص، الآية ٣.

(٢) سورة ص، الآيات ١٠-١١.

الحكم خالصاً للقيم، وتنتهي فيه كل السلطات
والحاكميات الأخرى بإرادة الله، وهناك يعني
الحكم بعذاب إبليس وتتجلى اللعنة عليه
بأوسع معانيها.

١٠

ما الحكمة من إعطاء المهلة لإبليس؟

وحيث حبطت أعمال إبليس ولاحقته اللعنات عرض على الله طلباً؛ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ مادمت خسرت الآخرة، وحبط عملي، ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، لعلّه طلب ذلك في مقابل أعماله وعباداته التي قام بها أن يطيل الله عمره، ويمهله إلى يوم البعث.

فاستجاب الله طلبه، ولكنّه لم يحدد له موعداً معيناً، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، وقد اختلفت آراء المفسرين حول المدة المعينة إلى قولين رئيسيين:

• **الأول:** أن إنظار إبليس يمتد إلى يوم القيامة.

• **الثاني:** أنه ينظر إلى يوم ظهور الحجّة عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وربّما لم يُعلم الله إبليس بساعة معينة للمهلة التي أعطاها إياه لكي يسلبه الاطمئنان، ولعل هناك حكمة أخرى لعدم

إعطاء الربّ موعداً محدداً لنهاية إبليس تتجلى في إعطاء الربّ قدرة محاربة الشر، واقتلاع شأفته للبشر، حيث وهب لهم إمكانية القضاء على إبليس نهائياً في اليوم المعلوم، وربّما تلتقي هذه الحكمة مع ظهور الإمام الحجّة عليه السلام، وظهور الحقّ على يديه - بإذن الله - حيث إنّه بدوره يعتمد في جانب منه على إرادة أهل الحقّ، والله العالم.



الفصل الثاني:

قصة الشيطان مع الإنسان



خلاصة الفصل الثاني

من طبيعة بني البشر أنهم خلقوا من تراب لذا فهم يحنون إلى الأرض، ويحبون عمارتها، ولكنهم مع ذلك يخلدون إليها وتغريهم شهواتها.

حياة الإنسان محاطة بسنن يصعب عليه تجاوزها؛ ومن تلك السنن سنة الامتحان التي تعتبر بمثابة الروح للسنن الأخرى؛ ولهذا نجد أن الربّ تبارك وتعالى حينما خلق آدم عليه السلام، جعل له عدواً وهو إبليس اللعين، لغرض وهدف الامتحان.

التمرد على إرادة الله في الخليقة تكويناً وتشريعاً عبارة عن شذوذ، تنتهي بالإنسان إلى الطرد من رحمة الله كما فعل إبليس!

مهما كان لإبليس من قوّة الإغراء ومن جمال التزيين، فإنّ

الله لن يدع له المجال لتحويل الحق إلى الباطل، وبطمس معالم الدين كلياً، وإنه لن يدعه يجبر الإنسان على اتباعه، نعم من تبعه يضلّه الله، ولا يعينه على الشيطان الغوي.

١

قصة الخلق الأول

أليست الأرض التي تحتضننا خليفة الله، فماذا عن الإنسان فوقها؟ وما هي قصته التي لا تنتهي؟

لقد كان تراباً فجُعل طيناً، وبقي حتى تسنّه، ثم أصبح صلصالاً كالفخار يابساً فخلق منه البشر، وقبلئذ خلق الجن من نار أوجدتها الرياح السامة.

وبدأت القصة حيث قال الله للملائكة - وكان بينهم بعض الجن - وهو إبليس: إني خالق بشراً من طين يابس متخذ من حمأ مسنون، وأمرهم بأن يسجدوا له متى ما أصبح سوياً متكاملأً، وعندما يبعث فيه من الروح التي خلقها، فإذا بهم يسجدون جميعاً، ويأبى إبليس.

ويسأله الربّ: لماذا لم تكن من الساجدين؟ فيجيب: أو لست قد خلقتني من نار ومثلي لا يسجد لبشر مخلوق من صلصال قد أتخذ من هذا الحمأ المتغير، فيخرجه الله من ساحة

قربه ويرجمه بلعته، ويطرده إلى أن يأتي يوم الدين فيحاسب.
 بيد أنه يطلب الإمهال إلى يوم البعث، فيعطيه الرب مهلة
 معينة لا يعرف مداها، ويتوعد بني آدم: بأن يزين لهم في
 الأرض وأن يغيرهم أجمعين، ولكنه يعرف أن هناك عبادة لله قد
 أخصهم ربهم لنفسه بسبب عبادتهم له وتسليمهم لأوامره.
 ويؤكد ربنا أن هناك صراطاً مستقيماً يتعهدده الله ويسير
 عليه عباد الله الذين لا سلطان لإبليس عليهم. إنما سلطانه
 على من يتبعه وهم الغاؤون الذين سيكون مصيرهم جهنم
 التي لها سبعة أبواب، كل فريق منهم يدخل من باب، بينما
 المتقون في جنات وعيون يدخلونها وهم سالمون آمنون، لا
 يعيش في قلوبهم غل وهم إخوان يجلسون على سرر متقابلين،
 لا يعترهم تعب، ولا يخشون من إخراجهم.

تلك هي قصة الإنسان فوق الأرض فهل نعرف مغزاها؟

في هذا الفصل نطلع على هذه القصة ذات البصيرة النافذة.

٢

ما هي مراحل خلق الله تعالى للإنسان؟

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ^(١) مِنْ حَمَإٍ^(٢) مَسْنُونٍ^(٣) ﴿٦٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ^(٤) ﴿٦٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٦٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٦٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٧٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي^(٥) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٦﴾

(١) الصلصال: الطين اليابس يسمع له عند النقر صلصلة وهي صوت شديد متردد في الهواء.

(٢) الحمأ: جمع حمأة، وهو الطين المتغير إلى السواد.

(٣) مسنون: من سنت الماء على وجهه أي صببته، وقيل المتغير.

(٤) السموم: الريح الحارة.

(٥) فأنظرنني: أمهلني في الدنيا ولا تمتني.

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾
 قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ^(١) لِأَزِيدَنِي ^(٢) لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ
 عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا
 مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾
 لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾.

إن ربنا أحسن الخالقين وقد يخلق شيئاً بقوله: كن فيكون،
 ألم يقل تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
 فَيَكُونُ﴾ ^(٤)، ولكنه قد يخلق شيئاً وفق السنن ويبدو أنه، قد
 خلق بدن الإنسان بهذه الطريقة حسبما تشير إليه تكاملية
 خلقه وضمير الجمع في ﴿خَلَقْنَا﴾.

أمّا روحه فقد نفخها فيه بقدرته المطلقة وبصورة
 مباشرة حسبما توحى إليه آية ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ^(٥)،
 وضمير المفرد في قوله هنا: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾.

وهكذا تدرج جسم الإنسان عبر مراحل من تراب، ثم

(١) أغويتني: الاغواء الدعاء إلى الغي والضلال.

(٢) لأزيدني: التزيين جعل الشيء متقبلاً في النفس، وإغواء الشيطان
 تزيينه الباطل حتى يدخل صاحبه فيه.

(٣) سورة الحجر، الآيات ٢٦-٤٤.

(٤) سورة يس، الآية ٨٢.

(٥) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

من طين لازب، وإلى حمأ مسنون، وإلى صلصال كالفخار، ثم إلى أن سواه ربنا إنساناً فنفخ فيه من روحه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ فما هو الصلصال: إنه الطين الجاف، الحمأة، والحمأ: طين أسود منسق، والمسنون: المتغير.

فلعل ربنا أجرى على التراب ماء فتفاعل معه فأصبح طيناً لازباً، ثم تفاعل معه فأصبح متعفنأ، ثم خلق فيه الحياة فأصبح مستويأ، ثم نفخ فيه روح العقل والإرادة، فاستحق سجود الملائكة.

قال صاحب مجمع البيان: وأصل آدم تراب، وذلك قوله: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾، ثم جعل التراب طينأ، وذلك قوله: ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، ثم ترك ذلك الطين حتى تغير واسترخى وذلك قوله: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، ثم ترك حتى جف وذلك قوله: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾، فهذه الأقوال لا تناقض فيها. إذ هي أخبار عن حالاته المختلفة^(١).

عن أبي بصير، عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، أنه قال: أخبرني عن خلق آدم، كيف خلقه الله تعالى؟ قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ نَارَ السَّمُومِ، وَهِيَ نَارٌ لَا حَرَّ لَهَا وَلَا

(١) مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣٤.

دُحَانَ، فَخَلَقَ مِنْهَا الْجَانَّ، فَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْجَانَّ
 خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾، وَسَمَّاهُ مَارِجًا، وَخَلَقَ مِنْهُ
 زَوْجَهُ وَسَمَّاهَا مَارِجَةً، فَوَاقَعَهَا فَوَلَدَتْ الْجَانَّ، ثُمَّ وَلَدَ الْجَانُّ وَلَدًا
 وَسَمَّاهُ الْجِنَّ، وَمِنْهُ تَفَرَّعَتْ قَبَائِلُ الْجِنِّ، وَمِنْهُمْ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ،
 وَكَانَ يُوَلِّدُ الْجَانَّ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، وَيُوَلِّدُ الْجِنُّ كَذَلِكَ تَوْأَمِينَ،
 فَصَارُوا تَسْعِينَ أَلْفًا ذَكَرًا وَأُنثَى، وَازْدَادُوا حَتَّى بَلَغُوا عِدَّةَ الرِّمَالِ.

وَتَزَوَّجَ إِبْلِيسُ بِامْرَأَةٍ مِنْ وُلْدِ الْجَانِّ يُقَالُ لَهَا: لَهَا بِنْتُ رُوحَا بْنِ
 سَلْسَاسِلَ، فَوَلَدَتْ مِنْهُ يَبْلَقِيسَ وَطَوْنَةَ فِي بَطْنِ وَاحِدٍ، ثُمَّ شِعْلَا
 وَشَعِيلَةَ فِي بَطْنِ وَاحِدٍ، ثُمَّ دُوَهْرَ وَدُوَهْرَةَ فِي بَطْنِ وَاحِدٍ، ثُمَّ شَوْظَا
 وَشَيْظَةَ فِي بَطْنِ وَاحِدٍ، ثُمَّ فَقَطْسَ وَفَقَطْسَةَ فِي بَطْنِ وَاحِدٍ، فَكَثُرَ
 أَوْلَادُ إِبْلِيسَ (لَعَنَهُ اللَّهُ) حَتَّى صَارُوا لَا يُحْصَوْنَ، وَكَانُوا يَهِيْمُونَ عَلَى
 وُجُوهِهِمْ كَالذَّرِّ، وَالتَّمَلِّ، وَالبُعُوضِ، وَالجِرَادِ، وَالتَّيْرِ، وَالدُّبَابِ.
 وَكَانُوا يَسْكُنُونَ الْمَفَاوِزَ وَالْقِفَارَ، وَالحِيَاضَ، وَالأَجَامَ، وَالتُّرُقَ،
 وَالمَرَابِلَ، وَالكُنْفَ، وَالأَنْهَارَ، وَالأَبَارَ، وَالتَّوَاوِيسَ، وَكُلَّ مَوْضِعٍ
 وَحِشٍ، حَتَّى امْتَلَأَتِ الأَرْضُ مِنْهُمْ. ثُمَّ تَمَثَّلُوا بِوَلَدِ آدَمَ بَعْدَ ذَلِكَ،
 وَهُمْ عَلَى صُورِ الخَيْلِ، وَالحَمِيرِ، وَالبِغَالِ، وَالإِبِلِ، وَالمَعزِ، وَالبَقْرِ،
 وَالعَنَمِ، وَالكِلَابِ، وَالسِّبَاعِ، وَالسَّلَاحِفِ.

فَلَمَّا امْتَلَأَتِ الأَرْضُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْلِيسَ (لَعَنَهُ اللَّهُ) أَسْكَنَ اللَّهُ
 الْجَانَّ الهَوَاءَ دُونَ السَّمَاءِ، وَأَسْكَنَ وُلْدَ الْجِنِّ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا،

وَأَمَرَهُمْ بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وَكَانَتِ السَّمَاءُ تَفْتَحِرُ عَلَى الْأَرْضِ، وَتَقُولُ: إِنَّ رَبِّي رَفَعَنِي فَوْقَكَ، وَأَنَا مَسْكُنُ الْمَلَائِكَةِ، وَفِي الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَخَزَائِنِ الرَّحْمَةِ، وَمِنِّي يَنْزِلُ الْوَحْيُ.

فَقَالَتِ الْأَرْضُ: إِنَّ رَبِّي بَسَطَنِي وَاسْتَوْدَعَنِي عُرُوقَ الْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتِ وَالْعُيُونِ، وَخَلَقَ فِييَ الثَّمَرَاتِ وَالْأَنْهَارَ وَالْأَشْجَارَ.

فَقَالَتْ لَهَا السَّمَاءُ: لَيْسَ عَلَيْكَ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى؟

فَقَالَتِ الْأَرْضُ: يَا رَبِّ، إِنَّ السَّمَاءَ تَفْتَحِرُ عَلَيَّ، إِذْ لَيْسَ عَلَيَّ أَحَدٌ يَذْكُرُكَ.

فَتَوَدَّيَتِ الْأَرْضُ: أَنْ اسْكُنِي، فَإِنِّي أَخْلُقُ مِنْ أَدِيمِكَ صُورَةً لَأَمْثَلَ لَهَا مِنَ الْجِنَّ، وَأَزْرُقُهُ الْعَقْلَ وَالْعِلْمَ وَالْكِتَابَ وَاللِّسَانَ، وَأُنزِلُ عَلَيْهِ مِنْ كَلَامِي، ثُمَّ أَمْلَأُ بَطْنَكَ وَظَهْرَكَ وَشَرْقَكَ وَغَرْبَكَ عَلَى مِزَاجِ تَرْبِكَ فِي اللَّوْنِ، وَالْحَرِيَّةِ، وَالسَّرِيَّةِ، وَافْتَحِرِي يَا أَرْضُ عَلَى السَّمَاءِ بِذَلِكَ.

ثُمَّ اسْتَقَرَّتِ الْأَرْضُ وَسَأَلَتْ رَبَّهَا أَنْ يُهَيِّطَ إِلَيْهَا خَلْقًا، فَأَذِنَ لَهَا بِذَلِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَعْصُوهُ. قَالَ: وَهَبَطَ الْجِنَّ وَإِبْلِيسَ اللَّعِينُ وَسَكَنَتَا الْأَرْضَ، فَأَعْظَمَا عَلَى ذَلِكَ الْعَهْدِ، وَنَزَلُوا وَهَمَّ سَبْعُونَ

أَلْفَ قَبِيلَةٍ يَعْبُدُونَ اللَّهَ حَقَّ عِبَادَتِهِ دَهْرًا طَوِيلًا.

ثُمَّ رَفَعَ اللَّهُ إِبْلِيسَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ، فَعَبَدَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ رَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَعَبَدَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا أَلْفَ سَنَةٍ، وَلَمْ يَزَلْ يَعْبُدُ اللَّهَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَكَانَ أَوَّلَ يَوْمٍ فِي السَّمَاءِ الْأُولَى السَّبْتُ، وَالْأَحَدُ فِي الثَّانِيَةِ، حَتَّى كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَبَّرَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَكَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَيُوحِّدُهُ حَقَّ تَوْحِيدِهِ، وَكَانَ بِمَنْزِلَةٍ عَظِيمَةٍ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِهِ جَبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَقَدْ أُعْطِيَ هَذَا الْعَبْدُ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ بِدَهْرٍ طَوِيلٍ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى جَبْرَائِيلَ أَنْ يَهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَيَقْبِضَ مِنْ شَرْقِهَا وَغَرْبِهَا وَقَعْرِهَا وَيَسْطِطَهَا قَبْضَةً، لِيَخْلُقَ مِنْهَا خَلْقًا جَدِيدًا، لِيَجْعَلَهُ أَفْضَلَ الْخَلَائِقِ^(١).

وجاء في تفسير البرهان في حديث طويل عن ابن عباس قال: فلما خلق الله تعالى آدم على هذه الصورة، أمر الملائكة فحملوه، ووضعوه على باب الجنة عدة من الملائكة، وكان جسداً لا روح فيه، وكانت الملائكة تتعجب منه ومن صفته وصورته، لأنهم لم يكونوا رأوا مثله، فذلك قوله تعالى:

(١) تفسير البرهان، ج٣، ص٣٤١.

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾، يعني لم يكن إنساناً موصوفاً.

وكان إبليس ممن يطيل النظر إليه، ويقول: ما خلق الله تعالى هذا إلا لأمر، فربما أدخل في فيه وأخرج، فإنه خلق ضعيف خلق من طين، وهو أجوف، والأجوف لا بد له من مطعم.

وقيل: إنه قال يوماً للملائكة: أما تعلمون أنتم لم فضل هذا الخلق عليكم؟ قالوا: نطيع ربنا ولا نعصيه، وهو يقول في ذلك: لئن فضل هذا الخلق علي لأعصينه، وإن فضلت عليه لأهلكنه.

قال: فلما أراد الله أن ينفخ فيه الروح، خلق روح آدم ﷺ ليست كالأرواح، وهي روح فضلها الله تعالى على جميع أرواح الخلق من الملائكة وغيرها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ قال: فلما خلق الله تعالى روح آدم ﷺ أمر بغمسها في جميع الأنوار، ثم أمرها أن تدخل في جسد آدم ﷺ بالتأني دون الاستعجال، فرأت الروح مدخلاً ضيقاً و منافذ ضيقة، فقالت: يا رب، كيف أدخل من الفضاء إلى الضيق؟ فنوديت: أن ادخلي كرهاً.

فدخلت الروح من يافوخه إلى عينيه ففتحتها آدم عليه السلام، فجعل ينظر إلى بدنه ولا يقدر على الكلام، ونظر إلى سرادق العرش مكتوباً عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصارت الروح إلى أذنيه، فجعل يسمع تسييح الملائكة.

ثم جعلت الروح تدور في رأسه ودماعه، والملائكة قبل خلقه بذلك، قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(١)، ثم صارت الروح إلى الخياشيم، ففتحت العطسة المجاري المسدودة وسارت إلى اللسان، فقال آدم عليه السلام: الحمد لله الذي لم يزل فهي أول كلمة قالها، فناداه الرب: يرحمك ربك-يا آدم-لهذا خلقتك، وهذا لك ولذريتك، ولمن قال مثل مقاتلك.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ عَلَىٰ إِبْلِيسَ أَشَدُّ مِنْ تَسْمِيَةِ الْعَاطِسِ». قال: فصارت الروح في جسد آدم عليه السلام حتى بلغت الساقين والقدمين، فاستوى آدم قائماً على قدميه في يوم الجمعة، عند زوال الشمس.

قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «كَانَتِ الرُّوحُ فِي رَأْسِ آدَمَ عليه السلام مِائَةَ عَامٍ، وَفِي صَدْرِهِ مِائَةَ عَامٍ، وَفِي ظَهْرِهِ مِائَةَ عَامٍ،

(١) سورة ص، الآيات ٧١-٧٢.

وَفِي بَطْنِهِ مِائَةَ عَامٍ، وَفِي عَجْزِهِ وَفِي وَرْكَيْهِ مِائَةَ عَامٍ، وَفِي سَاقَيْهِ
وَقَدَمَيْهِ مِائَةَ عَامٍ».

فلما استوى آدم قائماً، نظرت إليه الملائكة كأنه الفضة
البيضاء، فأمرهم الله بالسجود له، فأول من بادر إلى السجود
جبرئيل، ثم ميكائيل، ثم عزرائيل، ثم إسرافيل، ثم الملائكة
المقربون.

و كان السجود لآدم يوم الجمعة عند الزوال، فبقيت
الملائكة في سجودها إلى العصر، فجعل الله تعالى هذا اليوم
عيداً لآدم عليه السلام و لأولاده، و أعطاه الله تعالى فيه الإجابة في
الدعاء، و في يوم الجمعة و ليلتها أربع و عشرون ساعة، في كل
ساعة يعتق سبعون ألف عتيق من النار^(١).

الطباع البشرية

ويبدو أنّ لكل أصل من أصول البشر رواسب في خلقته،
فلأنّه من تراب يمن إلى الأرض، و يجب العمارة فيها، و ينبغي
أن يكون خاضعاً لله، ساجداً عليها، لا يرى أحد أنّه أفضل
من غيره بطبعه لأنّ طبعهم جميعاً هو التراب.

ولأنّه من طين لازب فهو ابن الشهوات والأهواء، ولكنّه

(١) تفسير البرهان، ج ٣، ص ٣٤٣-٣٤٤.

يتصلب على شيء بسبب كونه من صلصال، وتلك جميعاً طبائع البشر المادية، أمّا الروح فلها خصائص أخرى.

قبل أن يخلق الله البشر خلق عدوه (الجان) الذي يقابل الإنس، ذكر هنا بلفظة جان للدلالة على طبيعته كما نقول الإنسان ونشير إلى طبيعته دون ملاحظة أفراده.

كيف خلق الجان؟

يبدو أنّ ریحاً تحمل السموم بسبب حرارتها، وقد عصفت فأوجدت ناراً فخلق الله منها الجان، قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾.

٣

كيف أصبح الجان عدواً للإنسان؟

أما كيف أصبح الجان عدو الإنسان فلذلك قصة أخرى بدأت مع إخبار الله ملائكته: أنه سوف يخلق بشراً، بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣١﴾﴾، وعرف الملائكة طبيعة هذا الخلق كما جاء في سورة البقرة. إنه ما دام من الطين فلا بد أن يفسد في الأرض.

ولكن الله أنبأهم بأن له طبيعة أخرى يستحق بها السجود تلك هي روحه الإلهية، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾^(١).

ويبدو أن التسوية هي تكامل جميع الأعضاء، وتعادل الغرائز وهذه مرحلة تسبق مرحلة بث الروح.

(١) سورة الحجر، الآيات ٢٨-٢٩.

والملائكة سجدت لأدم كلهم أجمعون

أمّا الملائكة التي هي الأرواح المطيعة لربّها، المكلفة بتسيير الخليقة حسبها يأمرها جبارها، فإنّها سجدت لأدم ﷺ لكان الروح التي نفخت فيه من الله ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

وكما استوحينا من آية في سورة البقرة^(١): إنّ الملائكة - كما يبدو - تعني فيما تعني الذين وكلوا بالقوى الطبيعية، وهكذا سخر الربّ للإنسان ما في الأرض جميعاً بإذن الله تعالى، بينما بقيت قوّة في الطبيعة وهي قوّة نفس الإنسان الأمانة بالسوء الموكل بها إبليس.

لذلك لم ينضم إبليس إلى مجموعة الساجدين متعمداً، وعن سبق إصرار، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^(٢).

لم يرخص الربّ بذلك، بل نهه قائلاً: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^(٣).

فقوى الشر ليست حاكمة حتماً من قبل الربّ على البشر إنّها هي شذوذ عن سنّة الله، وتمرد مؤقت على إرادته، ولذلك

(١) راجع تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) سورة الحجر، الآيات ٣١-٣٢.

ينبغي ألا يستسلم لها البشر ولا يعترف بشر عيتها، ويناضل
ضدها أبداً حتى ينتصر عليها بإذن الله.

هل عذر إبليس كان أقبح من ذنبه؟

وعذر إبليس كان أسوأ من عمله؛ إذ زعم أنّه أفضل من
آدم، وأخطأ مرتين:

- **الأولى:** حين اعتقد أنّ ابن النار أفضل من ابن
التراب، واعتقد أنّ أفضلية المخلوق هي بأصله، لا
بعلمه وبفوائده.

- **الثانية:** حين تمرد على أوامر الله، اعتماداً على هذا
الزعم، فحتى لو كان أفضل من آدم -جدلاً- فإنّ
سجوده بأمر الله ليس سجوداً لآدم -في الواقع- بل
لمن أمره بذلك وهو الله سبحانه، إنّ طاعتك مثلاً
للنبي أو الإمام ليست طاعة له في الواقع بل لله، وإنّ
تسليمك لأوامر قيادتك الإلهية ليس تسليماً لبشر، بل
لمن أمرك بذلك.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ
صَلْصَالٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ﴾^(١)، ونستوحي من هذه الآية: إنّ
طينة الإنسان لم تكن مقدسة تستدعي السجود من قبل الملائكة

(١) سورة الحجر، الآية ٣٣.

بل إن كرامته من الله، وكذلك بقدر طاعته لله، لماذا؟ لأن طيبته كانت من طين يابس متخذ من طين متعفن، وقد نفرت منه بعض قوى الطبيعة لزعمها أنّها أفضل منها.

٤

لماذا طرد إبليس من عند الله تعالى؟

لأن التمرد على الله، ومخالفة الحقّ شذوذ في برنامج الحياة وليس جزءاً مقدرًا منه، أو جانباً مقضياً، فقد طرد ربّنا إبليس من مقام الإرادة والتوجيه، وأبعده أيضاً عن مقام الطبيعة المأمورة، ورجمه باللعنة، فهبط إبليس بذلك ثلاث درجات:

- **الأولى:** حين قال له الله: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من مقام الملائكة حسبما يهدي إليه السياق، وقالوا من الجنة أو من السماء أو من الأرض، ولأنّ مقام الملائكة هو مقام الأمر حيث إنهم ينفذون أوامر الله على الطبيعة فهم وسائط أمره عزّ وجلّ، فلذلك كان إخراج إبليس من ذلك المقام الذي هو السماء بالنسبة إلينا (السماء مصدر الأمر في القرآن) اللعنة الأولى.
- **الثانية:** حيث أسقطه الربّ عن مقام سائر ما في الطبيعة مما استسلمت لأوامر الله طوعاً فأصبح

رجيماً، وقال له الله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

ونستوحي من الآية - مرة ثانية - إنَّ العصيان شذوذ في الطبيعة لا قاعدة.

- **الثالثة:** حين كتب عليه الربُّ اللعنة فأصبحت الطبيعة ضده، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١)، واللعنة هي الإبعاد من رحمة الله، ويوم الدين هو يوم الجزاء.

(١) سورة الحجر، الآيات ٣٤-٣٥.

٥

ما الذي جرى في

المرحلة الأخيرة من قصة إبليس؟

وانتهت المرحلة الثانية من قصة الخليقة، وبقيت المرحلة الأخيرة التي هي عبرتها، وما يلتصق بحياتنا أكثر فأكثر، ذلك أن إبليس طلب من الله فرصة إلى يوم البعث، فأعطاه الله فرصة معينة إلى يوم معلوم، قد يكون قبل يوم البعث أو هو يوم البعث ذاته.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٣٦)، وهنا كشف القرآن عن فلسفة المسافة الزمنية التي تفصل بين الجزاء وبين العمل في الدنيا.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾^(٣٧) والبشر بدوره يعطى مهلة إلى أجل محدود.

وينتهي الأجل إلى وقت معلوم عند الله، مجهول عند صاحبه: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ قال البلخي: فأبهم ولم يبين

لأنَّ في بيانه إغراء بالمعصية^(١).

أخذ يهدد إبليس بني آدم الذي كان سبب اختباره وبالتالي لعنته .

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ لم يضل الله إبليس إلا بعد أن اختار بكامل وعيه وبسابق قصده عصيان أمر الرب، ويكفي في معنى السبب الذي توحىه كلمة (باء) هذا القدر من العلاقة، وخلاصة معناه: ربِّ كما أنك اخترتني ففشلت، فأني سوف أهيب لهم وسائل الاختبار فيفشلون، وهكذا أنتقم منهم.

وكان الله يريد أن يختبر عباده وهذا إبليس رشح نفسه لهذه المهمة، كما أن الله يريد أن يعذب القوم الظالمين فيرشح من هو أظلم منهم نفسه للانتقام فيتركه الله - بينه وبينهم - فيصدق الحديث القدسي:

«الظالم سيني؛ أنتقم به، وأنتقم منه»^(٢).

أمَّا كيف وبأية وسيلة أراد إبليس إغواء البشر؟ فلقد كشفها لنا قائلاً: ﴿لَأَزِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي سوف أجعل الأرض جميلة في أفئدتهم حتى تستهوهم.

(١) مجمع البيان، ج٦، ص٤٣٦.

(٢) كلمة الله، ص١٨٠.

إغواء إبليس كإغواء الله لإبليس مجرد اختبار وليس إجبار، ويشهد عليه أن عباد الله المخلصين يتمردون عليه قال تعالى:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤١).

وصراط الله مستقيم وهو إلى الله، وعلى الله المحافظة عليه مستقيماً، وألا يدع التشويه والانحراف يصيبه، كما قال سبحانه في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١) فمهما كان لإبليس من قوّة الإغراء ومن جمال التزيين، فإن الله لن يدع له المجال لتحويل الحق إلى الباطل، وطمس معالم الدين كلياً. وإنه لن يدعه يجبر الإنسان على أتباعه، نعم من تبعه يضلّه الله، ولا يعينه على الشيطان الغوي قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢)، وهم قد اختاروا سلطة إبليس اختياراً ولم يجبرهم عليها الله، فحرام تبرير البعض خطأهم وانحرافهم بأنهم كانوا مجبورين. أما الغاؤون فإنّ الله أجّل عذابهم الحقّ إلى جهنم فقد قال عنهم الربّ تبارك وتعالى: ﴿وَأِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٣).

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

حيث تختلف أبواب الضلالة ولكنها بالتالي تنتهي إلى
 ذات المصير الواحد ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ
 مَقْسُومٌ﴾^(١).

(١) سورة الحجر، الآيات ٣٦-٤٤.



الفصل الثالث:

كيف ينخدع الإنسان بالشيطان؟



خلاصة الفصل الثالث

حينما يقال (وسوسة) فإنه يتبادر إلى الذهن وسوسة الشيطان، ولكن السؤال ما هي الوسوسة؟ وهل هي مختصة فقط بالشيطان؟

الجواب: هي التشويش على رؤية الإنسان وعمله وفطرته، وذلك عن طريق إثارة الغرائز التي تصبح حاجزاً بين العقل والحقائق، وكلّ من مارس هذا التشويش يدخل ضمن هذه الدائرة.

وإذا أردنا أن نتعرف على طريقة إبليس في تعامله مع البشر لوجدنا أنه أثار صفتين في آدم عليه عليه السلام موجودتين في كلّ أبنائه:

- الأولى: حب الملك والعزة والرفعة.

• **الثانية:** حب الخلود والبقاء والاستمرار.

وهاتان الصفتان هما تعبيران عن حب الذات وربّما عن العنصرية؛ لذا فعلينا أن نراقب أنفسنا لكيلا ينفذ الشيطان إلى قلوبنا ويفسد أعمالنا.

وبتعبيرٍ آخر: فإنّ الشيطان يوسوس للإنسان، فيستشير طباعه الدفينة، ويدغدغ تمنياته المكبوتة، ويحرك تلك الغرائز الخامدة، وهو يفعل كلّ ذلك بهدف التشويش على بصره، والتمويه عليه، وزرع الشبهات في قلبه، وإلقاء التبريرات والتساؤلات في نفسه.

مع أنّ الإنسان لو تُرك وفطرته، لاستفاد من حياته، ولكن الشيطان يدخل مع الإنسان في كلّ شيء ويصير معه شريكاً، فيمتص جهوده، فلا يستفيد الإنسان من حياته لحياته الأخرى.

ونستطيع أن نقول إنّ الشيطان الذي يجسد قوى الشر في الطبيعة ويشير قوى الشر في النفس، لا يريد توحيد كلمة البشر، بل يحاول تقوية شهوات البشر، ودعم أهوائه الذاتية، وبالتالي فإنّ هدف الشيطان ليس إسعاد البشر.

ومن جهة أخرى علينا ألا نستسلم لأهواء المترفين أو

الطغاة، لأنّ ذلك يعتبر شركاً بربّ العزة، بالإضافة إلى أنّه تشويش للرؤية.

وكذلك إذا أردنا أن نحافظ على حصن ولاية الله المحيطة بنا، لا بدّ أن نذكر أئحانا المؤمن بأحسن ما فيه حتى تزداد اللحمة الاجتماعية تماسكاً، والقلوب المؤمنة صفاءً وتحابياً.

١

كيف يهوي البشر بسبب وساوس إبليس؟

كانت قصة إبليس وعنصريته، وتكبره وخروجه من السماء، ووعدده أنه سوف يغوي أبناء آدم، وبالتالي كانت قصة الخطيئة الأساسية هي موضوع الآيات السابقة لهذه الآيات التالية، والآن جاء دور آدم وأبنائه كيف أمَّهم انخدعوا بإبليس، وكيف ينبغي تجنبه؟

قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ^(١) لَهُمَا مَا وُورِيَ^(٢) عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا^(٣) وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾

(١) ليبدى: الإبداء والإظهار، وهو جعل الشيء على صفة ما يصح أن يدرك وضده الإخفاء، وكلّ شيء أزيل عنه الساتر فقد أبدى.

(٢) وري: المواراة جعل الشيء وراء ما يستتره، ومثله المساترة، وضدها المكشوفة.

(٣) سواتهما: عوارتهما.

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٦﴾ فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَاوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴿١﴾.

أسكن الله آدم وزوجه الجنة، وسمح لهم بتناول كل الطيبات باستثناء شجرة واحدة، والتي إنمأ نهيا عنها بسبب حكمة، بيد أن الشيطان وسوس لها ليظهر ذلك العيب الذي ستره الله، وخدعها بأن الله لم ينهاهما عن هذه الشجرة إلا لكي لا يصبحا ملكين خالدين، وبذلك حاول أن يثير فيهما حب الرئاسة وحب البقاء.

وحلف لها بأنه ينصحهما، ولكن ذلك كان غروراً، فلما طعما من الشجرة ظهرت العورات الخفية لها، وإذا بهما يخصفان عليهما من ورق الجنة، وهناك ناداهما الله ربهما، وقال: أولم أنهكما عن الشجرة، وحذرتكما من عدوكم الشيطان؟

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٩-٢٥.

وبخلاف الشيطان الذي ازداد تكبراً، فإنّ آدم وزوجه ندما على عملهما واعترفاً، وقالوا: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، ولكن الذنب كان له أثره السلبي حيث أهبطا وذريتهما إلى الأرض، ليكون بعضهم لبعض عدواً، ولتكون لهم فيها فرصة محدودة.

(١) سورة الأعراف، الآية ٧٣.

٢

أبعاد العجز عند الإنسان

يبدو أن الجنة التي سكن فيها آدم وزوجه هي مثل حي
لنعمة الحياة المرفهة التي يوفرها الله سبحانه للبشر إذا اتبع
مناهجه، حيث إن مناهج الله تعالى وسيلته للسعادة والفلاح،
والله لم يحرم الطيبات، بل حرم بعضاً مما أوجبه حكمته
سبحانه، كما أباح لأبينا آدم وزوجه أكل ما شاء، ولكن
نهما عن شجرة واحدة بحكمته البالغة، فقال تعالى: ﴿وَيَا
آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا
تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

قبل أن يواجه الإنسان التحديات والشهوات يزعم أنه قادر
على مواجهاتها، وأنه صالح، ولكن الضعف والعجز كامنان
في طبيعة البشر، ويظهران في الامتحان، وعلى البشر أن يستعد
للقيام بعد السقوط، والتوبة بعد الذنب، وألا يغتر بنفسه، ولا
تأخذه العزة بالإثم.

(١) سورة البقرة، الآية ٣٥.

قال ربنا تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَآتِهِمَا﴾، والوسيلة التي استخدمها الشيطان هي الوسوسة، وحسب الظاهر فإن الوسوسة هي: التشويش على رؤية الإنسان وعمله وفطرته، وذلك عن طريق إثارة الغرائز التي تصبح حاجزاً بين العقل والحقائق. واستخدم إبليس أسلوبيين آخرين:

- **أولاً:** تفسير الحقائق تفسيراً باطلاً، قال ربنا تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.
- **ثانياً:** الكذب والحلف عليه، قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

٣

غريزة حب الملك والخلود في البشر

لقد أثار إبليس صفتين في آدم موجودتين في كل أبنائه:

- الأولى: حب الملك والعزة والرفعة.
- الثانية: حب الخلود والبقاء والاستمرار.

وهاتان الصفتان هما تعبيران عن حب الذات، وربما عن العنصرية، وقد توسل بهما إبليس في محاولته لإغواء آدَم وأمنا حواء، وقد اعترف بذلك إبليس لذلك علينا أن نسعى لنراقب أنفسنا لكي لا ينفذ الشيطان إلى قلوبنا ويفسد أعمالنا. ومن الملاحظ أنه لم يكن ثمة نقص في مستلزمات الحياة ليكون سبب معصية آدم عليه السلام إنما كان حبّ الخلود والملك، ولعل ذلك يكون أيضاً في بني آدم فلو استطاع البشر مقاومة هذا الحبّ لتخلص من كثير من المعاصي.

ولم يكتفِ إبليس بتفسير النص الإلهي تفسيراً خاطئاً لهما وإثارة الغرائز عندهما، بل كذب عليهما كذباً صريحاً ومؤكداً

بِالْقَسَمِ فَقَالَ رَبَّنَا سَبِّحَانَهُ: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِئْنٌ
التَّاصِحِينَ﴾ وأصل المقاسمة: أن تكون من طرفين كآية صيغة
أخرى من دون المفاعلة، بيد أن إبليس قد يكون حلف حلفاً
مكرراً وكأنه كان يعارض حلف الطرف الآخر.

كيف كان كلام إبليس غروراً؟

وكل ذلك التفسير والكذب والحلف كان غروراً، أي تركيزاً
للنظر في جانب واحد فقط، وترك الجوانب الثانية مهمة،
حيث إن أصل الغرور هو الثوب حتى لا يتبين كل جوانبه،
والشيطان ينفذ إلى قلب البشر من خلال الغرور حيث يسعى
إلى تأكيد جانب واحد فقط من الحقائق وترك سائر الجوانب،
﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

وأخيراً طعماً شيئاً من الشجرة، فظهرت لهما عوراتهما؛ فإذا
بهذا يرى عورة الثاني فاستحيا، فأخذوا يجعلان أوراق الشجر
على بعضها عسى أن تصبح على هيئة اللباس فيواري عوراتهما.
و بالطبع فإن أبناء آدم حين يتبعون الشيطان تظهر نقائصهم،
وضعف إرادتهم، وقلة مقاومتهم للشيطان، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا
ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

وهنا انتهت مرحلة الامتحان، فناداهما ربهما وقال لهما:
ألم أنهكما عن هذه الشجرة؟ وهكذا يستقيظ الضمير بعد
ارتكاب ما نهي عنه، قال تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا
عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ﴾.

٤

التوبة من الذنب من أفضل الصفات

وعاد الرشد إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه، وهذه من ميزات البشر على إبليس الذي لم يعترف بالخطيئة، أما التوبة وإصلاح الفاسد من أبرز وأعظم الصفات الحسنة لو استغلت، قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقد وصف الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ التائبين بقوله: «عَرَسُوا أَشْجَارَ ذُنُوبِهِمْ نَضَبَ عُيُونِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، وَسَقَوْهَا بِمِيَاهِ النَّدَمِ؛ فَأَثْمَرَتْ لَهُمُ السَّلَامَةُ، وَأَعْقَبَتْهُمْ الرِّضَا وَالْكَرَامَةُ»^(١).

وخسر البشر بذلك فرصة البقاء في الجنة، وهبطوا إلى دار الدنيا بسبب حب الخلود والرفعة، وانتشرت بينهم الخلافات، والصراعات الاجتماعية الدائمة والمقيبة، وكل ذلك وليد هذه النفسية المذنبية، ولكن الله عز وجل أنعم عليهم ببعض

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٧٢.

الاستقرار على الأرض، وبيعض المتاع والتمتع المؤقت، قال
تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

هنا دار الحياة والممات، ومن ثمّ البعث قال تعالى: ﴿قَالَ
فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

٥

سيئات الاستكبار

بين عبر الماضي ورؤية المستقبل

في سياق بيان القرآن الحكيم لزينة الحياة الدنيا وموقف الإنسان منها، ذلك الموقف المتسامي الذي يجعله يمتلك هذه الزينة بدل أن تمتلكه، يعالج القرآن أخبث صفة تجعل الإنسان يتكاثر في الأموال والأولاد وهي التعالي والتكبر، ويذكرنا الربّ بعاقبة إبليس أو من تمرد على ربّه واستعلى، ويأمرنا بمقاومته، كما يبين - في هذا الإطار - موقف المؤمن من طائفة المستكبرين .

يبين طبيعة هؤلاء ليوحد حاجزاً نفسياً بين المؤمن وبينهم، فيضرب في الأعماق التاريخية حيناً، ويصور المستقبل البعيد حيناً آخر.

أمّا من التاريخ فيضرب الله لنا مثلاً من واقع إبليس الذي استكبر ورفض أن يسجد لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن سجدت

له الملائكة جميعاً، وكان إبليس من الجن. الذين هم أقل رتبة وأدنى درجة من الملائكة.

ويوحى القرآن من هذا المثل بهذه الفكرة، ويتساءل السياق مستنكراً: كيف تعبدون إبليس المستكبر المتمرد على سلطان الله أو تعبدون ذريته وهو لكم عدو مبین؟

من المستقبل یبین الله لنا كيف أن المجرمين حينما يرون النار، ويتصورون أنفسهم وهم ملامسون لها، فإن فرائصهم ترتعد خوفاً وشفقة على أنفسهم، ولكن أنى لهم الهروب من النار؟! وبين هذا المستقبل وذلك التاريخ، على الإنسان أن یحدد موقفه من الثروة والسلطة وأصحابها المستكبرين وهم ذرية إبليس وسبب الفساد في الأرض.

٦

ولاية الله أم ولاية الشيطان؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(١).

لقد كان إبليس من الجن، وكانت الملائكة أرفع منهم درجة، وقد أمر إبليس - كما الملائكة - بالسجود لآدم عليه السلام، ولكنه خرج عن الطاعة، والفسوق هو: الخروج عن الحدود، وربما يكون الخروج أحياناً من مكان ضيق إلى آخر رحيب، أو من مكان غير مناسب إلى آخر مناسب، ولكن عندما يكون الخروج من الحدود المرسومة للشيء، مثل أن يخرج الإنسان من الحمى، أو إذا خرجت الفاكهة من قشرها فإن ذلك يسمى فسقاً، لأن هذا الخروج خروج غير مناسب، وهو يؤدي إلى نتائج سلبية.

(١) سورة الكهف، الآية ٥٠.

يقول القرآن الحكيم: إنَّ خروج إبليس عن الطاعة كان فسقاً أي كان سبباً لفساده وهلاكه.

قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي هل من الصحيح أن تتخذوا إبليس ولياً من دون الله، فولي الإنسان هو صديقه الذي يحبه، بينما إبليس قد تمرد على الله واستنكف عن طاعته، فكيف لا يستكبر على الناس وهو عدو لهم؟!

قال تعالى: ﴿بئس لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ إنه بديل سيئ لمن يتَّخذه ولياً من دون الله، ولكن من الذي يتخذ إبليس ولياً؟ إنَّهم الظالمون، فعمل الإنسان يؤثر على عقله وعقيدته، فظلمه للآخرين ومن ثمَّ ظلمه لنفسه ينعكس على عقيدته، ولا يتعد الإنسان عن الشيطان إلا إذا كان مؤمناً، لذلك فإنَّ القرآن غير توجيه الكلام فلم يقل: (بئس لكم بدلاً)، وإنما قال: ﴿بئس لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

٧

ولاية الشيطان

عذاب وضلال عن رحمة الرب

قال تعالى: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥﴾^(١).

إن الإنسان الذي يريد أن يجمع بين الحق والباطل، بين الهدى والضللال، بين الخير والشر، فإنه سيجد أن الخير والهدى قد تبخرا ولم يبق معه سوى الشر والضلالة، إذ لا يمكن أن يجتمع عند الإنسان الخير والشر معاً، ولا بد أن يذهب أحدهما.

(١) سورة مريم، الآيات ٤١-٤٥.

وإذا تمادى البشر في عبادة الشيطان فإن الله يسلب منه ضوء العقل فيصبح ولياً للشيطان إلى الأبد، وهذا عذاب عظيم يمس الذين يتبعون الشيطان.

ولعل الآية تنفي - بصورة إيجابية - فكرة ضالة يبثها الشيطان في روع تابعيه خلاصتها: أن الله يبغضه، وإنما الشيطان يحميه من غضب الرب. ويسفّهُ السياق هذا الزعم:

• **أولاً:** بأن الله هو الرحمن، ولا يبغض أحداً لذاته بل بسبب فعالة القبيحة.

• **ثانياً:** إن اتباع الشيطان عذاب وشر مستطير وليس فيه أية فائدة.

هذا هو حوار إبراهيم الذي يتميز بسمتين بارزتين:

• **أولاً:** إنه حوار هادئ.

• **ثانياً:** إنه يتدرج ويتصاعد شيئاً فشيئاً، ففي البداية يقول:

﴿لِمَ؟﴾ ثم يقول: ﴿لَا تَعْبُدْ﴾، ثم يقول: ﴿فَاتَّبِعْنِي﴾،

ثم يقول: إنه يخشى أن تكون ولياً للشيطان.

في الواقع إن عم إبراهيم الذي يخاطبه إبراهيم عليه السلام بالأب لأنه كان يعيش في بيته كان فعلاً ولياً للشيطان، بيد أن إبراهيم لم يجابهه بالحقيقة مرة واحدة، ولكنه تدرج في حوار.

٨

تكريس ولاية الشيطان

قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ لم يقل: (أراغب أنت عن الحق يا إبراهيم)، لأنَّ الحقَّ والباطل لم يكن محوراً لعمل (آزر) عم إبراهيم، إنما قال ﴿عَنِ إِلَهِي﴾ لأنَّه أراد أن يفرض سيطرته وهيمته.

قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ هذا هو الإرهاب العائلي يقول: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، وأرجمك إمَّا بمعنى أن أقذفك بالحجارة كما يرجم مرتكبو الكبائر، وهو أشد أنواع الإعدام، وإمَّا بمعنى إني لأرجمك بالضلالة فأقول إنَّك مارق، أو أتهمك بتهمة كبيرة أمام المجتمع. ومن سياق الآية يتبين أن المقصود هو المعنى الثاني للرجم وليس الإعدام.

﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾^(١) في البداية هدده بالرجم والتشهير، ثم أمره بأن يهجره، أي يخرج من بيته نهائياً وهذه عملية نراها

(١) سورة مريم، الآية ٤٦.

اليوم عادة بين بعض الآباء، حيث يقوم الواحد منهم بطرد ولده إذا وجد ولده يسير في طريق لا يرضيه حتى لو كان ذلك الطريق صائباً وسليماً كالانتفاء إلى حركة إسلامية، أو القيام بنشاطات سياسية، دينية، أو ما شاكل ذلك.

بالتمسك بالوحي نتحدى كيد الكافرين

ولأنّ عاقبة الكفار الدمار فلا بدّ من مواجهة إغرائهم وإرهابهم، ولا يمكن ذلك إلاّ بالتمسك الشديد بالرسالة.

قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ لينظر المؤمن إلى الظواهر السياسية والاجتماعية من خلال بصائر الوحي، لكيلا يتأثر بها سلبياً، وليطبق مناهج الرسالة بدقة حتى يمكنه الله في الأرض، لأنّ كلّ بند من بنود الشريعة قوّة واقتدار، وليكن واثقاً من سلامة خطه فإنّ الثقة بالنصر طريق إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٤٣﴾.

وليس الشرف في أموالهم ومناصبهم، وإنما هو في الوحي الذي يعبق ذكر المتمسكين به في كلّ أفق، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ لقد ذهب أصحاب الأموال، وأصبحوا أحاديث يعتبر بهم المعتبرون، بينما بقي ذكر أصحاب الرسالة على كلّ شفة وعلى امتداد العصور.

بلى، إنّ أصحاب الرسالة مسؤولون قبل غيرهم عنها، لأنّها

نزلت في بيوتهم فهم أحق بها وأهلها، ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾^(١).

وجاء في حديث ماثور عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: في قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَنُكَرَّرَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ قال:

«الذِّكْرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ أَهْلُ الذِّكْرِ، وَهُمْ الْمَسْئُولُونَ»^(٢).

ولا يجوز الاستسلام لأهواء المترفين أو الطغاة، لأن في ذلك شركاً برب العزة، وقد جاءت الرسالة لتطهير النفوس من الشرك، وتطهير المجتمع من القيادات الشركية، فكيف تقبل بهم اليوم شركاء في السلطة ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾^(٣).

كلا، إنما هو إله واحد، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه يخضع بأحدهما لربه وبالثاني لأصحاب الثروة أو السلطة.

(١) سورة الزخرف، الآيات ٤٣-٤٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٧٥.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٤٥.

٩

(الغیبة) نموذج من ولاية الشیطان

المغتاب في ولاية الشیطان، والغیبة تخرج صاحبها من ولاية الله إلى ولاية الشیطان؛ فما هي ولاية الشیطان؟

أظهر ما فيها الفرقة والتشتت والتشردم التي هي سبب مصائب المسلمين اليوم. وإذا أمعنا النظر فيها لرأينا أكثرها نفسية، فبسبب النظرة السلبية إلى بعضنا تنامت خلافاتنا، والغیبة هي المسؤولة عن انتشار النظرة السلبية. فلو كنا نتمسك بتعاليم الإسلام في التعامل مع بعضنا على أساس الثقة وكنا نستر العائبة ونشيع العارفة، ونبث الروح الإيجابية، لكننا إخواناً متعاونين، من هنا حدّرت النصوص الدينية من الغیبة وجعلتها سبباً للخروج من ولاية الله حيث الوحدة والصفاء، والدخول في ولاية الشیطان.

سأل أحدهم الإمام الصادق عليه السلام: قائلاً: يا بن رسول الله، أخبرني عمّن تُقبل شهادته ومن لا تُقبل.

فقال ﷺ: « يَا عَلْقَمَةَ، كُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ جَازَتْ شَهَادَتُهُ ».

قال: فقلت: تقبل شهادة مقترف بالذنوب؟

فقال ﷺ: « يَا عَلْقَمَةَ، لَوْ لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَةُ الْمُقْتَرِفِينَ لِلذُّنُوبِ لَمَا قُبِلَتْ إِلَّا شَهَادَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ ﷺ، لِأَنَّهُمُ الْمَعْصُومُونَ دُونَ سَائِرِ الْخَلْقِ، فَمَنْ لَمْ تَرَهُ بِعَيْنِكَ يَزْكِبُ ذَنْبًا، أَوْ لَمْ يَشْهَدْ عَلَيْهِ بِذَلِكَ شَاهِدَانِ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ وَالسَّتْرِ، وَشَهَادَتُهُ مَقْبُولَةٌ، وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ مُذْنِبًا، وَمِنْ اغْتَابَهُ بِمَا فِيهِ فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ دَاخِلٌ فِي وِلَايَةِ الشَّيْطَانِ »^(١).

وجاء في رواية أخرى عن المفضل بن عمر عن أبي عبدالله ﷺ قال: « مَنْ رَوَى عَلَيَّ مُؤْمِنٍ رَوَايَةً يُرِيدُ بِهَا شَيْئَهُ وَهَدَمَ مَرْوَةَ تَه لِيَسْقُطَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ وِلَايَتِهِ إِلَى وِلَايَةِ الشَّيْطَانِ »^(٢).

لماذا الغيبة في بعض النصوص أشد من الزنا؟

وقد جعلت بعض النصوص الدينية الغيبة أشد من الزنا، ربّما لأن آثار الغيبة الخطيرة في تفرقة الناس والنيل من كرامتهم، وإشاعة الفاحشة أشد من آثار الزنا، لأن الحكمة

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٣٩٥.

(٢) المحاسن، ج ١، ص ١٠٣.

المأثورة في حرمة الزنا هي اختلاط المياه وهدم الأسرة مما يسبب في تفكك المجتمع، وهذه حكمة حرمة الغيبة أيضاً، ولكن يبدو أنّ الغيبة أفتك بوحدة الأمة من أختها الزنية.

وقد أمر الإسلام بأن يستحلّ المغتاب من صاحبه حتى يغفر الله له، لأنّ ذلك - فيما يبدو - يعيد العصمة المقطوعة بينهما ويسبب في إعادة اللحمة إلى المجتمع، بالإضافة إلى أنّ ذلك يكون رادعاً للمغتتاب أن يعود إلى مثل ذلك مرة أخرى.

قال النبي ﷺ: «الغَيْبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزَّيْنَةِ».

فقليل: يا رسول الله، ولم ذلك؟

قال ﷺ: «أَمَّا صَاحِبُ الزَّيْنَةِ فَيَتُوبُ، فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا صَاحِبُ الْغَيْبَةِ فَيَتُوبُ، فَلَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، حَتَّى يَكُونَ صَاحِبُهُ الَّذِي يُحِلُّهُ»^(١).

مسؤوليتنا ردع المغتاب

ولأنّ الغيبة تفتح ثغرة في الحصن الاجتماعي فإنّ على الناس أن يأخذوا على يد المغتاب حتى لا يهدم حصنهم، بأن يدافعوا عن أحيهم الغائب، فقد جاء في الأثر عن ابن الدرداء عن أبيه أنّه قال: «نال رجلٌ من عرض رجلٍ عند النبيّ ﷺ فردّ

(١) وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ٢٨٤.

رجلٌ من القوم عليه، فقال النبي ﷺ:

«مَنْ رَدَّ عَنْ عَرِضٍ أَخِيهِ كَانَ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ»^(١).

وفي حديث آخر، عن النبي ﷺ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عَرِضٍ أَخِيهِ

المُسْلِمِ كُتِبَ لَهُ الْجَنَّةُ البَّتَّة»^(٢).

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «مَنْ اغْتَيْبَ عِنْدَهُ أَخُوهُ الْمُؤْمِنُ فَنَصَرَهُ وَأَعَانَهُ نَصَرَهُ اللَّهُ وَأَعَانَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَنْصُرْهُ وَلَمْ يُعِنِّهِ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرَتِهِ وَعَوْنِهِ إِلَّا خَفَضَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٣).

اذكر أخاك إذا غاب بأحسن ما فيه

ولكي نحافظ على حصن ولاية الله المحيطة بنا، لا بد أن نذكر أخانا المؤمن بأحسن ما فيه حتى تزداد اللحمة الاجتماعية تماسكاً، والقلوب المؤمنة صفاءً وتحابياً.

جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«وَاذْكُرُوا أَخَاكُمْ إِذَا غَابَ عَنْكُمْ بِأَحْسَنِ مَا تُحِبُّونَ أَنْ تُذَكِّرُوا إِذَا

غَيْبْتُمْ عَنْهُ»^(٤).

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٩٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٩٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٩١.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٩٤.

لماذا الغيبة إشاعة الفاحشة؟

كيف تشيع الغيبة الفاحشة في الأمة مع أن المغتاب حين يذكر صاحب الذنب يذمه بذنبه ويجعله أمثلة وعبرة لا مثلاً صالحاً وقدوة؟

السبب أن للذنوب هيبة في نفوس المؤمنين، والجو العام في المجتمع المسلم يرفضها، فلذلك يضطر الذي قدم عليها إلى التكتم، فإذا انتهكت عصمته أمام الملام لم يعد يخفيها، كما أن الآخرين إذا عرفوا وجود من يرتكب الذنب لا يجدون حرجاً من الاقتداء بهم، وهكذا تشيع الفاحشة في الأمة.

من هنا يُعدُّ المذنب الكاتم لذنبه أقل إجراماً ممن يتجاهر به، كما يُعدُّ الذي يذيع الفاحشة كمن يتدئ بها.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أذَاعَ فَاِحْشَةً كَانَ كَمُبْتَدِيهَا، وَمَنْ عَيَّرَ مُؤْمِنًا بِشَيْءٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَرْكَبَهُ**»^(١).

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الكاظم عليه السلام قال (الراوي) قلتُ له: جعلت فداك! الرجل من إخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكرهه، فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قومٌ ثقاتٌ، فقال عليه السلام لي:

(١) الكافي، ج ٢، ص ٣٥٦.

«يَا مُحَمَّدُ، كَذَّبَ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ عَنْ أَخِيكَ، فَإِنْ شَهِدَ عِنْدَكَ خَمْسُونَ قَسَامَةً وَقَالَ لَكَ قَوْلًا فَصَدَّقَهُ وَكَذَّبَهُمْ، وَلَا تُذَيِّعَنَّ عَلَيْهِ شَيْئًا تَشِينُهُ بِهِ وَتَهْدِمُ بِهِ مُرُوءَتَهُ فَتَكُونَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾»^(١).

ولا يغتب بعضكم بعضاً

قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾^(٢).

الغيبة: ذكر معايب الناس عن ظهر الغيب.

وقالوا تختلف الغيبة عن الإفك والبهتان؛ إن الإفك أن تقول في الناس ما لا تعلم أنه فيهم، بينما البهتان أن تقول فيهم ما تعلم أنهم براء منه، أما الغيبة فأن تقول فيهم ما يكرهون مما تعلم أنه فيهم، وقد تعم كلمة الغيبة لتشمل الإفك والبهتان.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهُ، وَسَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ، فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾»^(٣).

(١) الكافي، ج ٨، ص ١٤٨.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٢.

(٣) الكافي، ج ٢، ص ٣٥٧.

سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الغيبة، قال:

«هُوَ أَنْ تَقُولَ لِأَخِيكَ فِي دِينِهِ مَا لَمْ يَفْعَلْ، وَتَبْتَ عَلَيْهِ أَمْرًا قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ لَمْ يَقُمْ عَلَيْهِ فِيهِ حَدٌّ»^(١).

وفي هذا النص نرى كيف تعمُّ كلمة الغيبة لتشمل البهتان، وكيف أتمها تخص العيوب المستورة، أمّا العيب المتجاهر به صاحبه فإنّ ذكره لا يعد غيبة، وهكذا جاء في رواية مرسلة عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال: «مَنْ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ خَلْفِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِمَّا عَرَفَهُ النَّاسُ لَمْ يَغْتَبَهُ، وَمَنْ ذَكَرَهُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِمَّا لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ اغْتَابَهُ، وَمَنْ ذَكَرَهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(٢).

وهكذا لم يجعل الإسلام للفاسق المتجاهر بفسقه حرمة، جاء في رواية نبوية: «اذْكُرُوا الْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ كَيْ يَحْذَرَهُ النَّاسُ»^(٣).

ألسنا نكره أكل لحم أخينا ميتاً فكيف نغتابه؟

قال تعالى: ﴿أَيُّبُ أَحَدِكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾^(٤) هكذا الغيبة.

أرأيت أنّ شخصية الإنسان أعظم عنده أم شخصه؟ أليس المرء يسعى جهده من أجل الكرامة والتقدير، فإذا اغتابه أحد

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٤٠.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٣٥٨.

(٣) مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٢٤.

(٤) سورة الحجرات، الآية ١٢.

فقد اغتال شخصيته، ونال من كرامته وهي ربّما تكون أعز من جسده، ولأنّه ليس في محضه فكأنّه أكل لحمه بعد موته.

هل يرغب أحد في أكل لحم حمار ميت فكيف يغتاب أخيه؟

بالله ما أروع هذا التشبيه! وما أنفذه من تحذير في وجدان الإنسان الحر، وكيف يقربّ كتاب ربّنا الحقائق العظيمة إلى وعينا، بهذه البلاغة النافذة، وكيف يبصرنا بأنّ البشر ليس كسائر الأحياء يعيش حياة مادية ضمن حدود بدنه فحسب، بل إنّهُ يمتد مع سمعته وشهرته أنّى توسعت في أفق المكان والزمان. وقد يضحي الإنسان بجسده في سبيل كرامته، أوّلاً يدل ذلك على أنّ كرامة الإنسان أعظم عنده من شخصه؟ من هنا فإنّ الاعتداء عليها ليس بأقل من الاعتداء على بدنه، والغيبة اعتداء سافر على كرامة الشخص، فما أشدها حرمة! من هنا جاءت النصوص تترى في التحذير من الغيبة باعتبارها أكلاً للحم المغتاب بعد موته.

روي أنّ الأسلمي (يعني ماعز بن مالك) جاء إلى النبيّ ﷺ

فشهد على نفسه بالزنا فرجحه رسول الله ﷺ.

فسمع نبي الله رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر:

انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم

كالكلب، فسكت عنهما ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار
شائل برجله فقال ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟»

فقالا: نحن ذا يا رسول الله.

قال ﷺ: «انزلاً فكلًا من جيفة هذا الحمار».

فقالا: يا نبي الله ومن يأكل من هذا؟

قال ﷺ: «فَمَا نَلْتَمَا مِنْ عَرَضٍ أَحْيَكُمَا أَشَدُّ مِنَ الْأَكْلِ مِنْهُ،
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ الْآنَ لَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْعَمُ فِيهَا»^(١).

وروي عنه ﷺ أنه قال: «مَرَزْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي بِقَوْمٍ لَهُمْ
أَظْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ يَخْدِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ
هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَيْلُ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقْعُونَ فِي
أَعْرَاضِهِمْ»^(٢).

قيل للإمام الصادق عليه السلام: بلغنا أن رسول الله ﷺ كان
يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُبَغِضُ الْبَيْتَ اللَّحْمِ»، فقال الإمام عليه السلام: «إِنَّمَا
ذَاكَ الْبَيْتُ الَّذِي يُؤْكَلُ فِيهِ لُحُومُ النَّاسِ»^(٣).

(١) تفسير القرطبي، ج ١٦ ص ٣٣٥، سنن أبي داود، ج ٢، ص ٢٤٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٥٤.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٦.

هكذا نصح الإمام زين العابدين من اغتاب

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أن رجلاً قال لعلي بن الحسين عليه السلام: إن فلاناً ينسبك إلى أنك ضالٌ مبتدعٌ.

فقال له علي بن الحسين عليه السلام: «مَا رَعَيْتَ حَقَّ مُجَالَسَةِ الرَّجُلِ حَيْثُ نَقَلْتَ إِلَيْنَا حَدِيثَهُ، وَلَا أَدَيْتَ حَقِّي حَيْثُ أَبْلَغْتَنِي عَنْ أَخِي مَا لَسْتُ أَعْلَمُهُ، إِنَّ الْمَوْتَ يُعْمِنُنَا، وَالْبُعْثَ مَحْشُرُنَا، وَالْقِيَامَةَ مَوْعِدُنَا، وَاللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَنَا، إِيَّاكَ وَالْغَيْبَةَ فَإِنَّهَا إِذَا مِ كِلَابِ النَّارِ، وَأَعْلَمَ أَنَّ مَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ عُيُوبِ النَّاسِ شَهِدَ عَلَيْهِ الْإِكْتَارُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهِ»^(١).

هؤلاء لا حرمة لهم!

أنهى الإسلام حرمة ثلاث طوائف:

- **الأولى:** أئمة الجور الذين لا بد من توعية الناس بظلمهم، وسوء إدارتهم، حتى يتمكن المسلمون من إزاحتهم، أو لا أقل من تجنب خطرهم.
- **الثانية:** أصحاب الضلالة كالأحزاب الكافرة والمنافقة والمبتدعين في الدين.
- **الثالثة:** الفسقة المتجاهرون.

(١) فبسبب كثرة ذنوبه يذكر عيوب الناس كثيراً. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٤٦.

فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ثَلَاثَةٌ لَيْسَتْ لَهُمْ حُرْمَةٌ: صَاحِبُ هَوَى مُبْتَدِعٌ، وَالْإِمَامُ الْجَائِرُ، وَالْفَاسِقُ الْمُعْلَنُ الْفِسْقِ»^(١).

ويبدو أنّ المظلوم أيضاً يجوز له أن يعتاب من ظلمه لقوله سبحانه: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾^(٢).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمْهُمْ، وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ، وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ، فَهُوَ مِمَّنْ كَمَلَتْ مُرُوءَتُهُ، وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ، وَوَجَبَتْ أُخُوَّتُهُ، وَحُرِّمَتْ غَيْبَتُهُ»^(٣).

هكذا اشترط الرسول صلى الله عليه وآله توافر هذه الصفات في المؤمن حتى تحرم غيبته.

كلمة جامعة في الغيبة

وفي نهاية المطاف نقرأ معاً كلمة جامعة في الغيبة منسوبة إلى الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الْغَيْبَةُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، مَا تَوَثَّرَ صَاحِبُهَا فِي كُلِّ حَالٍ. وَصِفَةُ الْغَيْبَةِ أَنْ تَذْكَرَ أَحَدًا بِمَا لَيْسَ عِنْدَ اللَّهِ عَيْبًا، أَوْ تَذُمَّ مَا تَحْمَدُهُ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيهِ، وَأَمَّا الْخَوْضُ فِي

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٨٩.

(٢) سورة النساء، الآية ١٤٨.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٩٦.

ذَكَرَ الْغَائِبِ بِمَا هُوَ عِنْدَ اللَّهِ مَذْمُومٌ وَصَاحِبُهُ فِيهِ مَلُومٌ فَلَيْسَ بِغَيْبَةٍ
 وَإِنْ كَرِهَ صَاحِبُهُ إِذَا سَمِعَ بِهِ، وَكُنْتَ أَنْتَ مُعَافَى عَنْهُ، وَخَالِيًا مِنْهُ
 وَتَكُونُ فِي ذَلِكَ مُبَيَّنًّا لِلْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَكِنْ
 بِشَرْطٍ أَنْ لَا يَكُونَ لِلْقَائِلِ بِذَلِكَ مُرَادٌ غَيْرَ بَيِّنَاتِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ
 فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَأَمَّا إِذَا أَرَادَ بِهِ نَقْصَ الْمَذْكَورِ بِغَيْرِ ذَلِكَ
 الْمَعْنَى فَهُوَ مَاخُودٌ بِفَسَادِ مُرَادِهِ وَإِنْ كَانَ صَوَابًا، فَإِنْ اُعْتَبَتْ فَبَلَغَ
 الْمُغْتَابِ فَاسْتَحَلَّ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ تَبْلُغْهُ وَلَمْ تَلْحَقْهُ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ لَهُ،
 وَالْغَيْبَةُ تَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ، أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى
 إِلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْمَغْتَابُ هُوَ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ
 إِنْ تَابَ، وَإِنْ لَمْ يَتُبْ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 ﴿يُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

وَوُجُوهُ الْغَيْبِيَّةِ: تَقَعُ بِذِكْرِ عَيْبٍ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ وَالْعَقْلِ
 وَالْفِعْلِ وَالْمُعَامَلَةِ وَالْمَذْهَبِ وَالْجَهْلِ وَأَشْبَاهِهِ، وَأَصْلُ الْغَيْبَةِ يَتَنَوَّعُ
 بِعَشْرَةِ أَنْوَاعٍ: شِفَاءِ غَيْظٍ، وَمَسَاعِدَةِ قَوْمٍ، وَتُهْمَةٍ، وَتَصَدِيقِ خَبَرٍ
 بِلَا كَشْفِهِ، وَسُوءِ ظَنٍّ، وَحَسَدٍ، وَسُخْرِيَّةٍ، وَتَعْجَبٍ، وَتَبَرُّمٍ، وَتَزْيِينٍ؛
 فَإِنْ أَرَدْتَ السَّلَامَةَ فَادْكُرِ الْخَالِقَ لَا الْمَخْلُوقَ، فَيَصِيرَ لَكَ مَكَانَ
 الْغَيْبَةِ عِبْرَةً، وَمَكَانَ الْإِثْمِ ثَوْبًا^(١).

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٧.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، ولعل هذه الخاتمة التي تفيض مغفرة ورحمة تدل على أنّ الغيبة بلاء يعمُّ الكثير من الناس ولا بدّ ألا تصبح مقبولة، ويذهب قبحها، بل نتقي الله فيها، ومن جهة أخرى لا يجوز أن يستبدّ اليأس بنا إذا وقعنا فيها بل نتوب إلى الله إنّ الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ.

(١) سورة الحجرات، الآية ١٢.



الفصل الرابع:

خطوات الشيطان



خلاصة الفصل الرابع

القرآن يدعو الناس صراحة إلى الاستفادة مما في الأرض، وهي دعوة ضمنية لكسر حواجز العبودية التي ترتبط في القرآن بأمر الشيطان الذي يأمر بالسوء والفحشاء.

إنّ علينا أن نتمتع بالحياة، ولكن الشيطان يمنعنا، إنّه يضع الحواجز بين الإنسان وبين نعم الله، وعلى الإنسان ألاّ يتبع الشيطان، وأن يقاومه. كما أنّ الشيطان يُزيّن للناس الغايات الخبيثة والإسراف والطمع، وكلّها تمنع من الانتفاع السليم والتام من خيرات الأرض.

إنّ تباين الناس في الخضوع للشيطان دليل على أن لا حتمية لسلطته، وعلى الناس ألا تسترسل في القول بحتمية الخضوع له.

إنّ وسائل الشيطان والطغاة كثيرة وماكرة، ولكن الإنسان قادر على مواجهتها ببصيرة الإيمان، وسلاح التوكّل، ولو تسلح بهما لما أضعفت نفسيته ولما ضلّته وسائل الإعلام والتوجيه المنحرفة وغيرها.

الآيات القرآنية تنسف زعم الجاهلين بأنّ الشياطين قوى خارقة وعالمة بأقدار الله، الأمر الذي جعل البعض يشرك بهم، ويتبعون الكهنة باعتبارهم وسائط بين الشياطين وبين آدميين، فإنّ النجوم ليس كما يتصورون بل هي زينة ومصاييح ورجوم.

تكمّن خطورة الشيطان في أنّه يستخدم أمكر الخطط من أجل إغواء بني آدم ولولا يقظة ابن آدم، وعزمه الراسخ للتخلص منه، فإنّ إبليس يصرعه بوحدة من خططه العديدة. وربّنا في القرآن يبيّن خمسة من خطط الشيطان:

- التضليل الإعلامي.
- الإرهاب.
- إفساد الاقتصاد.
- إفساد التربية.
- الترغيب.

١

بين خطوات الشيطان وشرائع الحق

مجتمع الحرية هو مجتمع التقدم والرفاه، ويربط القرآن الحكيم بين التحرر من اتباع شياطين الثروة والسلطة والدين، وبين الانتفاع التام بما في الحياة من نعم طيبة.

هؤلاء الشياطين، يجرّمون على الناس الطيبات من الرزق، لجهلهم أو لأنهم يريدون أن يستأثروا بها، أو لأنهم يحاولون إبقاء الناس ضعفاء مقهورين، ولكن الله خلق الأشياء لنا، وعلينا أن نعمل من أجل الحصول عليها ونتجاوز العقبات من أجلها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ (٣) وَالْفَحْشَاءِ (٣) وَأَنْ تَقُولُوا

- (١) خطوات: الخطوة بعد ما بين القدمين للماش، وخطوات الشيطان آثاره.
 (٢) السوء: كلّ فعل قبيح يزجر عنه العقل أو الشرع، وإنما سمي القبيح سوءاً لسوء عاقبته.
 (٣) الفحشاء: والفاحشة والقبيحة والسيئة نظائر، وكلّ من تجاوز قدره فهو فاحش، وكلّ ما لا يوافق الحقّ فهو فاحشة.

عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا^(١) عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَ كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ^(٢) بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْل^(٣) بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطَرَّ^(٤) غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْتَرُونَ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ

(١) ألفينا: أي صادفنا ووجدنا.

(٢) ينعق: نطق صاح زاجراً، ونعق الغراب إذا صوت.

(٣) أهل: الإهلال في الذبيحة رفع الصوت بالتسمية، وكان المشركون يسمون الاوثان، والمسلمون يسمون الله.

(٤) اضطر: الاضطرار كل فعل لا يمكن المفعول به الامتناع منه وذلك كالجوع الذي يحدث للإنسان فلا يمكنه الامتناع منه.

(٥) البر: العطف والإحسان، والبر الصدق، والبر الإيمان والتقوى وأصله الاتساع ومنه البر.

وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ^(١) وَأَبْنَ السَّبِيلِ^(٢) وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ^(٣) وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي
الْبَأْسَاءِ^(٤) وَالضَّرَّاءِ^(٥) وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾^(٦).

إنّ الآية الأولى تدعو الناس صراحة إلى الاستفادة مما في
الأرض، وهي دعوة ضمنية لكسر حواجز العبودية التي
ترتبط في القرآن بأمر الشيطان الذي يأمر بالسوء والفحشاء،
ويضرب في الآيات التالية مثلين لاتباع الشيطان:

• **الأول:** اتباع الآباء.

• **الثاني:** اتباع المحرّفين لكتاب الله.

وفي الآية الأخيرة يحدّثنا القرآن الكريم عن النظرة القرشية
التي أوصى بها هؤلاء العلماء المزيّفون، فجردوا الدين من

(١) المسكين: من لا شيء له من المال.

(٢) ابن السبيل: هو المنقطع به إذا كان في سفره محتاجاً وإن كان في بلده
ذا يسار، وهو من أهل الزكاة، وقيل إنّه الضيف.

(٣) الرقاب: جمع رقبة وهي أصل العنق ويعبر به عن جميع البدن،
يقال: أعتق الله رقبتة، ومنه قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

(٤) البأساء: البؤس الفقر.

(٥) الضراء: السقم والوجع.

(٦) سورة البقرة، الآيات ١٦٨-١٧٧.

روحه ونوره وهداه.

إنَّ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ اليومَ تعاني من التخلُّف، الذي ليس في واقعِه، سوى صورة مبسطة لعدم الاستفادة من نعم الله، بسبب التقاليد البالية، والنظريات المزيفة في تفسير الدين، فينبغي أن تتقدم حتى تتمتع بنعم الله، وتكسر حواجز التقليد، وما يسمى بالدين وهو أبعد ما يكون عنه.

٢

لكي نتحرر من أغلال الشيطان

أولاً وقبل كل شيء، لا بد أن نضع للحريّة هدفاً سامياً. والحريّة في المجتمع الإسلامي - والتي دعت الآيات القرآنية إليها - تتمثل في رفض الأنداد، إنها ذات هدف سامٍ هو: الانتفاع بنعم الله.

وبكلّ صراحة يوجّه الله خطابه إلى الناس - كلّ الناس المؤمنين والكافرين - قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، وبذلك يقرر قاعدة عامة في التعامل مع الخليفة، ويعبر عنه في الفقه الاسلامي ب: (الأصل في الأشياء الحلية حتى يثبت أنّها حرام)، والتعبير ب: ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ تعبير يدل على الإطلاق، مما يعكس لنا نظرة القرآن الإيجابية إلى الحياة.

إنّ علينا أن نتمتع بالحياة، ولكن الشيطان يمنعنا، إنّهُ يضع الحواجز بين الإنسان وبين نعم الله، وعلى الإنسان ألاّ يتبع

الشيطان، وأن يقاومه. كما أن الشيطان يُزيّن للناس الغايات الخبيثة والإسراف والطمع، وكلّها تمنع من الانتفاع السليم والتام من خيرات الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(١)، ومن أبعاد عداوته لنا أنّه لا يريدنا أن نتنعم بالحياة!

الذين يمنعون زراعة الأرض هم أعداء الإنسان، والذين يمنعون التجارة ويضعون الحواجز في طريقها هم أعداء الإنسان، والذين يمنعون عمارة الأرض هم أعداء الإنسان وعلى الإنسان ألا يتبع أعداءه، وفي هذا الصدد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال حينما سُئل: أيّ الأعداء أوجبهم مجاهدةً؟

قال عليه السلام: «أَفْرَبُهُمْ إِلَيْكَ وَأَعْدَاؤُهُمْ لَكَ وَأَضْرَبُهُمْ بِكَ وَأَعْظَمُهُمْ لَكَ عَدَاوَةً وَأَخْفَاهُمْ لَكَ شَخْصاً مَعَ دُنُوهِ مِنْكَ وَمَنْ يَحْرِضُ أَعْدَاءَكَ عَلَيْكَ وَهُوَ إِبْلِيسُ»^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٨.

(٢) تحف العقول، ص ٣٩٩.

٣

ما هي القوانين الشيطانية وكيف نتحداها؟

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)

عند تبسيط القوانين والتقاليد التي يضعها الشيطان، نجد أنها تنقسم إلى ثلاث فئات:

أولاً: السوء

فبعضها (سوء) يمنع من الانتفاع بالحياة مثل: أكثر القوانين الزراعية والتجارية التي وضعت للحد من نشاط الناس، وللإبقاء على سيطرة مراكز القوى (شياطين الأرض) على مقدرات الناس.

وكمثل بسيط كان رؤساء العشائر الذين كانوا يتمتعون بقوة البطش يقتطعون لأنفسهم أرضاً يسمونها بالحمى، ويجزّمون على الناس رعي أغنامهم فيها، ثم تطورت وأصبحت

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٩.

تلك الأراضي ملكاً لأقرب الناس إلى السلاطين الإقطاعيات السلطانية، ثم تطورت وأصبحت أراضي أميرية مرتبطة بالبلاط الملكي، ثم تطورت وأصبحت ملكاً لأصحاب رؤوس الأموال الضخمة أو ما أشبهه.

ترى أن كل هذه القوانين منعت من زراعة الأرض، وبالتالي من انتفاع الإنسان بها، والسؤال كيف استطاع هؤلاء الشياطين منع الناس من الانتفاع بما جعل الله لهم حلالاً؟

الجواب: إنما فعلوا ذلك في ظل القوانين والأعراف والتقاليد الباطلة، فإذاً إيمان الناس واتباعهم لتلك القوانين والأعراف والتقاليد هو السبب غير المباشر لعدم انتفاعهم، إذن فلنكفر بالشيطان وبأنظمتها الجائرة.

ثانياً: الفحشاء

و(السوء) يتسافل إلى (الفحشاء) إذ إنه يكرّس السلطة والثروة بيد طائفة من الناس يستغلونها في الظلم.

ثالثاً: التبrier

والفحشاء تتلبس بثياب الدين، بفعل تعاون الانتفاعيين المستثمرين مع بعض من يسمى بـ(رجال الدين) الذين يجرّفون كلام الله، ويكتمون الكتاب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إذن أحد مظاهر (السوء) الأنظمة الباطلة، وكما أنّ أبرز مظاهر (الفحشاء) الظلم الاجتماعي الذي يقع - عادة - بسبب تلك الأنظمة وربّما التبرير الديني لتلك الأنظمة وذلك الظلم.

اتّباع الآباء قد يكون خطوة من خطوات الشيطان

وكمثل لذلك اتّباع الآباء المنحرفين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وفيه رفاه للجميع، وتحرر للطاقات، واستفادة من نعم الحياة فإذا بهم يرفضون، وقد قال ربّنا عنهم: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي ما تعودنا عليه من حياة آبائنا، ثم يقول تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١).

ومثل هؤلاء مثل البيغاء حيث يرددون ما يقوله الآخرون دون أن يفهموا منه شيئاً، إنهم فقدوا قدرتهم على التفكير والاستقلال الثقافي، قال ربّنا سبحانه ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ أي يصيح مقلداً لصياح الآخرين ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ أي بصياح لا يفهمه هو ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ مبهماً وغير معروف لديه، وهؤلاء في الواقع ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَى﴾ لأنّ الفائدة من الأذن واللسان والعين هي المعرفة والعقل، وحيث لا عقل فلا إحساس ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٧١.

إنَّ هذا مثل واحد لهؤلاء الناس الذين لا يتمتعون بالاستقلال، ولا يتحررون من عبادة الأنداد من دون الله، وبالتالي لا يستغلون موهبة العقل عندهم، ولذا نجد الروايات تنهى عن أن يكون الإنسان (إمعة) لا رأي له، ومن ذلك ما قال الإمام الكاظم عليه السلام لفضل بن يونس: «أَبْلَغُ خَيْرًا، وَقُلْ خَيْرًا، وَلَا تَكُنْ إِمَّعَةً» قلتُ: وما الإمعة؟ قال: «لَا تَقُلْ أَنَا مَعَ النَّاسِ، وَأَنَا كَوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا هُمَا نَجْدَانِ: نَجْدُ خَيْرٍ، وَنَجْدُ شَرٍّ، فَلَا يَكُنْ نَجْدُ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ»^(١).

ومثل آخر يضربه القرآن من واقع اتباع الذين يحرفون كلام الله، وهم صورة أخرى للتخلف الاجتماعي حيث يبرر هؤلاء الأنظمة الفاسدة، وقبل أن يضرب القرآن هذا المثل يعود ليأمرنا بالانتفاع من نعم الله، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وربما توجه الخطاب للمؤمنين هذه المرة، بينما كان الخطاب عاماً في الآية السابقة، ربّما ليدحض القرآن فكرة أنّ الدين تخلف ورجعية ومنع للطيبات، كما كان يوهم تصرف بعض المحرّفين، وليثبت العكس وأنّ الدين يأمر بالتقدم، وبأكل الطيبات،

(١) تحف العقول، ص ١٣٤.

﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على هذه النعم، وذلك بأن تكرموا هذه النعم، وتقद्रوها، وتحترموها.

ولأن الخطاب للمؤمنين لم يكتف بالسلب (لا تتبعوا خطوات الشيطان)، وإنما وصى الربّ تعالى بالشكر: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١).

المحرمات محدودة في القرآن

ولا تقولوا لكلّ نعمة من أنعم الله هذا حرام بدون علم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَخُمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِعَیْرِ اللَّهِ﴾ ما ذبح على الأصنام تقرباً لها. ومع أن هذه أمور محرمة إلا أنّها سوف تحلل في ظروف معينة.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) إنّ من يصيبه ضرر كبير بامتناعه عن كلّ هذه المحرمات لا إثم عليه، بشرط: أن يبقى ملتزماً نفسياً بحرمتها، فلا يجب أكلها ولا بيعها، وبشرط: ألا يتجاوز أكله لها حدود الاضطرار، فيأكل بقدر ما يدفع عن نفسه الضرر الكبير فقط.

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٣.

عاقبة الذين يكتمون ما أنزل الله

هذه هي محرمات الدين في الأكل؛ انظر كيف وسَّعها اليهود حتى كادوا أن يحرموا كل شيء، ثم كتموا حكم الله في الأكل بغياً واتباعاً لمصالحهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾، إذ سوف يكتشفون غداً بعد الموت أو حتى قبله أن اللقيمات القليلة التي أكلوها تحولت إلى نار ملتهبة، ذلك أن الأعمال السيئة تتجسد بعد الموت.

من هنا نرى أن الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تذم علماء السوء وتحذر منهم، ومن ذلك أنه قيل لأمر المؤمنين عليهم السلام: من خير خلق الله بعد أئمة الهدى ومصابيح الدجى؟

قال عليه السلام: «الْعُلَمَاءُ إِذَا صَلَحُوا».

قيل: فمن شرار خلق الله بعد إبليس وفرعون ونمرود وبعد المتسمين بأسمائكم والمتلقين بألقابكم، والآخذين لأمكتكم والمتأمرين في ممالككم؟

قال: «الْعُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا هُمْ الْمُظْهِرُونَ لِلْأَبَاطِيلِ الْكَاتِمُونَ لِلْحَقَائِقِ، وَفِيهِمْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ

اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ استهانة بهم، وتصغيراً لقدرهم، وهم الذين حرّموا على الناس الطيبات تأييداً للسلطات، وطلباً للجاه عندها، والحال أنّه لاجاه لهم عند الله أبداً ﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ بالرغم من أنّهم يحسبون أنفسهم من رجال الله، ويزكّون أنفسهم حتى يجعلوها أقرب الناس إلى الله، في حين أنّ الله لا يعتبرهم أزياء، ولا يقبل منهم دعواهم بأنهم عباده الصالحون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢) في الدنيا والآخرة.

لماذا هذا العذاب لمن يكتم ما أنزل الله؟

السبب واضح في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾ باعوا الهدى في مقابل بعض المكاسب المادية التي سببت ضلالتهم عن الحق، وتورطهم في المهالك ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾^(٣) حيث اشتروها لأنفسهم بعد علم بالدين.

(١) الإحتجاج، للطبرسي، ج ٢، ص ٤٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٤.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٥.

علماء السوء: تحريف الكتاب وتضريح الدين من روحه

إن هؤلاء علامتين:

• **العلامة الأولى:** أنهم حرّفوا الكتاب حتى جعلوه متوافقاً مع مصالحهم، ولأنّ مصالحهم مختلفة، ولأنّ كلّ طائفة فسروا الكتاب حسب مصالحهم، فقد اختلفوا في الكتاب ذاته، وتحوّل الكتاب عندهم إلى أداة تفریق، وكان سبيلاً للتوحيد، كان كتاب حقّ فأصبح عندهم كتاب هوى.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وأوجب على الناس أن يقيسوا الأشياء والأشخاص به وأن يحددوا أهواءهم وفق مبادئه، أمّا هؤلاء العلماء المنحرفون فقد أضلوا الناس عن الكتاب واختلفوا فيه، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾^(١) إنهم متمردون على الحقّ.

إنّ الله سبحانه وعد هؤلاء الضالين المضلين من أهل الكتاب بأشدّ العذاب لماذا؟
لأنّهم سلبوا من الناس أفضل ما كانوا يملكون،

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٦.

سلبوهم إيمانهم، وهداهم، وعقولهم، ودفعوا بالناس إلى هاوية بعيدة، كل ذلك لقاء بعض المكاسب المادية، وعلى الأمة أن تستيقظ حتى تكتشف هؤلاء السراق، وتقطع أيديهم، وتعود إلى وعيها وهداها.

• **العلامة الثانية:** النظرة القشرية إلى الدين، وتعميق هذه القشرية في النفوس، وتضخيم الأمور القشرية إلى حد تغطية القضايا الجوهرية.

والسبب في ذلك هو خلافاتهم الذاتية من جهة، ومن جهة ثانية تعويض تقاعسهم عن الواجبات الأساسية، والاهتمام البالغ بالقضايا الثانوية أو القشرية، يقول الله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ حتى تختلفوا في القبلة مع بعضكم، وتضخموا هذا الخلاف ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾، وهؤلاء المحرومون هم الذين يجب أن تتوجه إليهم رسالة السماء وحملة الرسالة، لا السلاطين والوجهاء، وحدهم.

قال تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ
 يَعْهَدُ لَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ حيث
 تقوم الحرب مع العدو ويُفقد الأمن، أو ينتشر الفقر
 والأزمات الاقتصادية، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ حيث تصاب الأمة
 أو الأفراد بضرر الأمراض أو الكوارث الطبيعية وما
 أشبهه، ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ حين الحرب واستمرار القتل،
 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ مع الله ومع الناس، واستوفوا
 حقيقة الإيمان ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١).

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٧.

٤

لا سلطان لإبليس على الإنسان

هل الانصياع لأوامر إبليس مسألة جبرية حتى يبرر الإنسان انحرافه بأن لا حول له ولا طول تجاه ضغوطه وأساليبه الماكرة؟
 بالطبع كلا..

والله ينفي هذه الحتمية بعد الإشارة إلى عدمها، من خلال تقسيم الناس إلى مطيعين لإبليس ومخالفين له؛ إذ لو كانت حتمية تقضي بالخضوع له لما تمرد عليه فريق المؤمنين، فالناس إذن هم الذين يقررون طاعة الربّ أو اتباع إبليس.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

(١) سورة سبأ، الآيات ٢٠-٢١.

جاء في وصية الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم أنه قال:
 «فَلَهُ فَلْتَشْتَدَّ عَدَاؤُكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَصْبَرَ عَلَى مُجَاهَدَتِهِ لِهَلَكَتِكَ
 مِنْكَ عَلَى صَبْرِكَ لِمُجَاهَدَتِهِ، فَإِنَّهُ أضعفُ مِنْكَ رُكْنًا فِي قُوَّتِهِ،
 وَأَقْلُ مِنْكَ ضَرَرًا فِي كَثْرَةِ شَرِّهِ إِذَا أَنْتَ اعْتَصَمْتَ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدَيْتَ
 إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يقهرهم
 به، بلى إنَّ وسائل الشيطان والطغاة كثيرة وماكرة، ولكن
 الإنسان قادر على مواجهتها ببصيرة الإيمان، وسلاح التوكل،
 ولو تسلح بها لما أضعفت نفسيته ولما ضلته وسائل الإعلام
 والتوجيه المنحرفة وغيرها.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣١٥.

٥

محدودية سلطة الشياطين

مما يؤكد حاجة الإنسان إلى إعادة النظر في معارفه أنّ هناك جملة من الأفكار والاعتقادات الخاطئة والأساطير ينطوي عليها فكره لا تتصحح إلاّ بكرّات أخرى جديدة يرجع فيها البصر والبصيرة.

ومن بينها تصوره المتصل بنظام السماء أنّه فيه ثغرات تنفذ منها الشياطين إلى الملاء الأعلى فتطلع على أقدار الله، وزعمه بأنّ النجوم هي مراكز الأقدار، وأنّ لكل فرد نجماً يخصه إذا مات سقط، وعلى ذلك فسروا ظاهرة الشهب والنيازك، لذا مضى القول: «نجمي لا يوافق نجمك» شائعاً.

والقرآن يشير إلى تلك التصورات ويصححها حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، وهي النجوم التي تعتبر لأهل الأرض قناديل الليل، إذ تهدي بها السفن التي أضلّتها العواصف عن مسارها، وتضيء درب

الراعي الساري بغنياته ليلاً في صحراء بعيدة، كما تناغي المستلقي تحت السماء في الليالي الصافية.

ولكن متانة الخلقة تربط بين تلك الزينة والإضاءة وبين حراسة السماء بتلك النجوم، فهي كما تزين السماء وتضيء لأهل الأرض كذلك تقصف الشياطين رجماً فلا يستطيعون العبث بمقدرات الكون، ولا حتى استراق السمع لمعرفة تلك المقدرات.

ولعله ها هنا ثمة إشارة للناحية الجمالية في الكون والتي تتنافى مع الصدفة؛ فالصدفة (الضرورة) مطلقاً لا تفسر الجمال في الكون ولا الحس الجمالي عند الإنسان المتذوق له.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ وهذه الآية تنسف زعم الجاهلين بأن الشياطين قوى خارقة وعالمة بأقدار الله لأنها تحترق السماوات وتصل إلى الأعلى، الأمر الذي جعل البعض يشرك بهم، ويتبعون الكهنة باعتبارهم وسائط بين الشياطين وبين الآدميين، فإن النجوم ليس كما يتصورون بل هي زينة ومصاييح ورجوم، وإن الشياطين ليسوا كذلك لأنهم يرجمون.

ولعل هذه الآية تؤكد متانة النظام الكوني وهيمنة الله من زاويتين:

• **الأولى:** أن ما نراه من الشهب والنيازك ليست مجرد قطع تنفصل عن مدار بعض النجوم والشموس في الفضاء نتيجة عوامل وقوانين فيزيائية بحثة ومن دون هدف، إنّما تنفلت من مواقعها بإرادة الله ولأهداف محددة من بينها رجم الشياطين.

• **الثانية:** أن النظام الكوني نظام متقن، وهو بالرغم من وجود العوامل المضادة التي تحاول خرقه كالشياطين فإنّها لا تؤثر في مسيرته ونظمه، وأنّ مصير كلّ محاولة لخرقه هو الفشل. وهذه الحقيقة تعطي الإنسان الاطمئنان والأمن حيث يشعر أنّه يعيش في كون منظم ومحروس.

ويؤكد ربّنا في خاتمة الآية بأنّ ما هو أعظم من جزاء الرجم الدنيوي للشياطين هو ذلك العذاب المعد لهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾^(١)، ويدل هذا المقطع على أن الشياطين مخلوقات مكلفة ومختارة ومسؤولة حيث تجري عليهم سنّة الجزاء.

(١) سورة الملك، الآية ٥.

٦

نتذكر خلق السموات والأرض لنطرد وساوس الشيطان

لماذا يطغى الإنسان؟

أوليس لأنه لم يستوعب أو يعترف بالنشور والحساب؟

ولكن كيف يؤمن بذلك ووساوس الشيطان تبعده عنه وتطرح في روحه التساؤلات المتلاحقة: كيف ومتى وأنى؟ من أجل أن يتجاوز الإنسان هذه الوسوس ولا يقع في شرك الشيطان يذكّره الربّ سبحانه بما يحيط به من خلق السماوات والأرض، وذلك لأمرين:

- **أولاً:** لكي نؤمن بعظيم قدرة الله التي تتجلى في هذا الخلق مما يهديننا إلى أنّه لا يعجزه شيء.
- **ثانياً:** لكي نزداد وعياً بحكمة الخلق، وأنّ له هدفاً محدداً، وأنّ الإنسان لن يشذ عن هذه السنّة العامة.

وإذا وعى الإنسان هاتين البصيرتين فإنه يستطيع مقاومة وساوس الشيطان. قال تعالى: ﴿عَأْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾^(١) فقدره الربّ التي بنت هذه الأجرام التي لا يبلغ حتى خيال أعظم العلماء مداها لا تعجزه إعادة الإنسان إلى الحياة مرة أخرى، وقال الله سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وإذا كان خلق السماوات شاهداً على قدرة الربّ فإن نظامها الدقيق شاهد على حكمته؛ انظر إلى السماء كيف ارتفعت بلا عمد نراها، وكيف استوت ضمن سلسلة لا تحصى من السنن والأنظمة الحكيمة.

﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾^(٣) قالوا: إذا نظرت من فوق الجبل إلى الوادي قلت: عمق الوادي، وإذا نظرت من الوادي إلى قمة الجبل قلت: سمك السماء، هكذا رفع الله السماء وجعلها عالية، وألزم أجرامها وغازاتها وأشعتها قوانين لا تحيد عنها قيد شعرة، ولعل هذا معنى التسوية.

كيف يذهب الله سبحانه بالماء من السماء رجز الشيطان؟

(١) سورة النازعت، الآية ٢٧.

(٢) سورة غافر، الآية ٥٧.

(٣) سورة النازعت، الآية ٢٨.

لو تذكر الإنسان حالاته السابقة، وكيف احتاج إلى رحمة ربه فدعاه بحقيقة الإيمان، فأسعفه وأنقذه من المشاكل، ولو تبصر الإنسان أوضاع الآخرين، وكيف تدخلت قوة الغيب في تأييد طائفة ضد أخرى إذن لعرف أن التوكل على الله سر التغلب على الصعاب.

ويذكر القرآن الأمة الإسلامية بماضيها، وأبرز المعارك الحاسمة فيها، والتي تتكرر مثيلاتها أبداً. مثلاً في معركة بدر حيث استغاث المسلمون فأمدهم ربهم بألف من الملائكة. قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ والاستغاثة - كأبي دعاء آخر - تكشف عن إرادة النجاح التي لا تقهرها حتى المشاكل المادية الظاهرة، كما أنها تكشف عن إيمان قوي بوجود المواهب الكبيرة عند الفرد، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾^(١) أي يؤيدونكم من وراءكم.

الرزاق حقاً هو رب السموات والأرض

يبين القرآن بطلان الأفكار التبريرية ومنها الزعم بأن غير الله يرزق شيئاً، وسواء كان السلطان أو المترف أو غيرهما فإن ربنا ينفي أن يكون الرزاق حقاً غير الله.

فيقول ربنا تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ

(١) سورة الأنفال، الآية ٩.

وَالْأَرْضِ ﴿١﴾، فيا ترى من يُرسل السحاب، ويبعث بأشعة الشمس، ويهدي الإنسان إلى طرائق الزراعة والصناعة، ويرزقه؟

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾.

ثمّ يستفيد من أسلوب التشكيك المنهجي لإيصال الإنسان إلى الحقيقة يقول تعالى: ﴿وَأَنَا أَوْ يَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١)، وهذا الأسلوب يجعل الكافر يشكك في طريقه شكاً منهجياً، كما يشك -على الأقل- في صدق الرسالة، مما يجره للبحث والتعرف، وهذا بالطبع سيقوده إلى الحقّ، مرحلة فمرحلة، وإنما يبقى في الضلال الذي لا يشكك نفسه، بل يعتقد جازماً أنّه على الصواب.

وكما أنّ جزم الإنسان بأنّ طريقه هو الأصحّ من دون بحث وتدقيق خطأ، فإنّ اعتقاده بصحة كلّ اعتقاد -كما يدّعي ذلك البعض- هو الآخر خطأ.

أليس كلّ إنسانٍ مسؤولاً عن عمله؟

و الفكرة التبريرية الأخرى التي ينسفها القرآن: هي الاعتقاد بأنّ عمل الإنسان يمكن أن يُلقى على عاتق غيره،

(١) سورة سبأ، الآية، ٢٤.

وإذا كان هذا ممكناً في الدنيا، حيث يُلقى بالمسؤولية على الآخرين، فإنه مستحيل في الآخرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، فكل إنسان يلزم طائره في عنقه.

ولكي نتخلص من هذه الفكرة التبريرية يجب أن نتطلع إلى الآخرة، حيث نقف جميعاً أمام الله ليحكم بيننا وهناك يتحدد المصير الأبدي.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾^(٢)، فلا بد أن نعتقد بيوم يتميز به الحق عن الباطل وأن أهلها بحكم الله، وضرورة هذا الاعتقاد أن الإنسان ربّما يعتمد على نفسه في التمييز بينهما، فإذا بالضغط والإغراءات تؤثر فيه وتضيع منه المقاييس.

وعلى سبيل المثال: لو لم تكن في العالم مقاييس وموازين محدودة للباعة لاجتهد كل واحد في تحديد مكيا لخاص به، وهذا أمر خطير ينتهي إلى التلاعب بالاقصاد، لكن إيجاد مقياس محدد يفرض على الجميع -البائع والمشتري- تكيف أنفسهم مع هذا المقياس، فيكون حاكماً بينهم، كذلك العلم

(١) سورة سبأ، الآية، ٢٥.

(٢) سورة سبأ، الآية ٢٦.

بوجود مقياس ثابت عند الله لا بدّ أن تنتهي إليه جميعاً يقف دون العمل بالأهواء.

وفي الآيات التالية يذكّرنا القرآن بأنّ الشركاء ليس فقط لا يملكون شيئاً، بل هم أنفسهم ليسوا بشيء إذا فكر الإنسان فيهم .

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾^(١) وادعيتهم أنّهم يتصرفون في الحياة معه، أو يؤثرون عليه، أو يعينونه، ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يحتاج إلى معين لأنّه قوي وقادر بذاته، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يحيط بالأمر علماً، ويتصرف فيها بدقة، فلا يخطئ حتى يحتاج إلى من يسدده أو يصحح حكمه عزّ وجلّ.

(١) سورة سبأ، الآية ٢٧. والآيات اللاحقة من نفس السورة.

٧

ما هي خطط الشيطان؟

تكمّن خطورة الشيطان في أنّه يستخدم أمكر الخطط من أجل إغواء بني آدم، ولولا يقظة ابن آدم، وعزمه الراسخ للتخلص منه، فإنّ إبليس يصرعه بوحدة من خططه العديدة. وكم يكون عظيماً ذلك الإنسان الذي يتحدى كلّ خطط الشيطان ويصل إلى الجنّة بعد تجاوز المواقع والعقبات الشيطانية العديدة.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُّ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُورًا﴾^(١)

يذكرنا السياق القرآني بخمس خطط للشيطان هي:

(١) سورة الإسراء، الآية ٦٤.

أولاً: التضليل الإعلامي

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾، والاستفزاز بمعنى الاستنهاض، يُقال فزّت الدابة، أي قامت وتحركت، أي حرّك منهم من تريد واستنهض من شئت بإعلامك المضلل. ويشمل الصوت الدعاية والموسيقى والغناء وكلّ أساليب الغواية المنطوقة.

ويُعتبر التضليل الإعلامي أمضى أسلحة الشيطان، حيث نرى بداية الخلق أنّ إبليس أغوى آدم وزوجته، وأخرجهما من الجنة، بالقسم الكاذب وعلى امتداد التاريخ استخدم الشياطين أبواقهم الدعائية لمحاربة الحقّ، وكان حول الطغاة أبداً جيشٌ من أدعياء الفكر والدين يؤيدون سلطانهم ويغوون عباد الله.

ولا تزال شبكات المستكبرين التضليلية تقوم بأسوأ دور في مد سيطرتهم الشيطانية على المستضعفين، وهكذا ينبغي أن يكون الإنسان على أعلى مستوى من الوعي حتى يقاوم هذا التضليل، وإلا فإنّ الجزارين سوف يقودونه إلى المذبحة بهدوء بعد أن يخدعوه ويغروه.

ثانياً: الإرهاب

قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾،
الإرهاب وسيلة شيطانية يستنجد بها أعوان الشيطان
متى تحرك الناس تجاه دينهم، أو بدأوا بممارسة حقهم
في التفكير، أو بدأوا يستخدمون عقولهم .. ﴿بِخَيْلِكَ﴾
هم الخيالة أو بمعنى آخر هم القوة المحمولة للشيطان،
﴿وَرَجِلِكَ﴾ إشارة إلى جيش المشاة.

ثالثاً: إفساد الاقتصاد

قال تعالى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وهذا
هو الأسلوب الثالث الذي يعتمد عليه الشيطان وهو
إفساد النظام الاقتصادي، وحين يكون الاقتصاد
فاسداً بسيطرة الرأسمال الكافر فإن من الصعب جداً
عبادة الله، لأن الشيطان يقطع رزق المؤمنين بعد سيطرة
أجهزته على المال.

رابعاً: إفساد التربية

أمّا المشاركة في الأولاد فتعني التربية الفاسدة
للطفل، فالشيطان يشارك الأب في تربية أبنائه فمنذ
نعومة أظفارهم يأخذهم ليرزقهم فكره، ليكونوا حملة
لرسالته.

والمعنى العميق لهذه الآية: أن الإنسان لو ترك وفطرته، لاستفاد من حياته، ولكن الشيطان يدخل مع الإنسان في كل شيء ويصير معه شريكاً، فيمتص جهوده، فلا يستفيد الإنسان من حياته لحياته الأخرى، بل تكون حكراً للشيطان، ومما يؤكد ما قدمناه قول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه الوارد في الصحيفة السجادية: «**فَلَوْ لَا أَنَّ الشَّيْطَانَ يَخْتَدِعُهُمْ عَنْ طَاعَتِكَ مَا عَصَاكَ عَاصٍ، وَلَوْ لَا أَنَّهُ صَوَّرَ لَهُمُ الْبَاطِلَ فِي مِثَالِ الْحَقِّ مَا ضَلَّ عَنْ طَرِيقِكَ ضَالٌّ**»^(١).

خامساً: الغرور

قال تعالى: ﴿وَعَدُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا **غُرُورًا**﴾ وهذه هي النقطة الأخيرة التي يعتمد عليها الشيطان وزبانيته وهي أسلوب الترغيب، ولخطورة هذه النقطة سفهاها الله سبحانه وتعالى، لأن الإنسان تغريه رنة الدينار حتى يعمى بصره فيصبح لا يرى الحقّ الأبلج.

الغرور هو التغيرير، قال الراغب في مفرداته: الغرور هو كل ما يغر الإنسان من جاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغاوين^(٢).

(١) الصحيفة السجادية، ص ١٦٤.

(٢) مفردات غريب القرآن، ص ٣٥٩.

٨

تأخر الجزاء واغترار الإنسان

على الإنسان أن يعرف حقيقة هامة جداً هي: أن الجزاء لا يكون دائماً بعد العمل مباشرة، بل على العكس حيث قد يتأخر الجزاء عن العمل، وهذا إبليس قد طلب المهلة من ربنا فأعطاه إياها حيث جاء في كتاب ربنا سبحانه قال تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾^(١).

وأهمية فهم هذه الحقيقة تأتي من أن البشر بسبب محدودية الرؤية، وضيق الأفق يزعم أنه لا يجازى على أعماله بمجرد تأخر الجزاء، بل حتى حين يأتيه الجزاء بعد حين ربما ينسى أنه جاء نتيجة عمله، ولذلك لا يرتدع بالعقاب ولا يندفع إلى الثواب.

وإنما يستفيد من الجزاء الذين يعدمون المسافة الزمنية بين العمل والجزاء، ويتصورون أنفسهم منذ لحظة القيام بالعمل

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤.

وكأثمهم في لحظة الجزاء؛ فالزارع الذي يتصور وقت الحصاد، والطالب الذي يتخيل قاعة الامتحانات، والجندي الذي تتراقص في مخيلته لحظات الانتصار، والمؤمن الذي يظن أنه ملاق ربّه يكون عمله أتقن وأبقى، بينما المجرم الذي ينسى قاعة المحكمة، والفاجر الذي يكفر بالآخرة، والفاسق الذي يتناسى الموت يكون أجراً على الله، وأوغل في الخطيئة.

٩

الخمر والميسر وسيلة الشيطان للتفرقة

الخمر والميسر يسببان الفرقة بين الناس، بينما الإسلام يأمر بالوحدة ويدعم هذه الوحدة بتحريم كل أسباب الفرقة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾^(١) العداوة تأتي بسبب سيطرة الشهوات على الإنسان، فيحاول كل واحد أن يعتدي على حقوق الآخرين ليحقق شهواته، بينما يجب أن يقف غريمه في موقف الدفاع، فإن لم يستطع دفع الظلم عن نفسه انقلب ظالماً لمن هو أضعف منه.

وهكذا يتحول المجتمع إلى سلسلة من الظالمين والمظلومين، والعداوة تتحول إلى بغضاء إذ سرعان ما يبحث كل طرف عن تبرير نفسي لظلمة، فينشر الحقد في كل قلب، فكل من يصبح مظلوماً يحقد على ظالمه.

(١) سورة المائدة، الآية ٩١.

ولكن المشكلة: أن هذا الحق قد يتحول إلى غير الظالم، بل إلى كل أبناء المجتمع فيبحث له عن متنفس يصب حقه فيه فإذا به يظلم الناس بلا سبب، وبلا مصلحة ذاتية بل متشفيًا لنفسه الحاقدة .

ويبقى سؤال: كيف تتسبب الخمرة في العداوة؟

الجواب: إن الخمرة تذهب بالعقل، وتضعف الإرادة، ويفقد الإنسان السيطرة على شهواته فتصبح شهواته هي المسيطرة عليه، تسوقه إلى حيث الاعتداء والظلم.

أمّا الميسر فإنه يعتمد على محاولة كل فريق التغلب على الآخرين، ليس بالعمل الصالح وإنما بالصدفة أو بال المكر والشطارة.

ومعلوم كيف تنتهي حالة مجتمع تسود علاقاته: المغالبة والمنافسة الماكرة.

الخمر والميسر ملهيان عن ذكر الله تعالى

وسبب آخر لحرمة الخمر والميسر هو: الإلهاء عن ذكر الله، وذكر الله هو طريق فلاح الإنسان.

إنّ الشيطان الذي يجسد قوى الشر في الطبيعة ويثير قوى الشر في النفس، لا يريد توحيد كلمة البشر، بل يحاول تقوية

شبهوات البشر، ودعم أهوائه الذاتية، وليس هدف الشيطان الذي يدعو الناس إلى اللهو واللعب وإلى معاقرة الخمر ونسيان المسؤوليات، ويدعوهم إلى لعب القمار والابتعاد عن العمل الصالح، وكذلك فهو لا يهدف أبداً إلى إسعاد البشر. والله يريد من الإنسان أن يكون واعياً لمسؤولياته، عالماً بأن هناك رقابة مشددة عليه من الله حتى يطبق واجباته متذكراً أبداً تلك الرقابة.

أمّا الشيطان فيريد تناسي الله والابتعاد عن ذكر الله بالخمر والميسر.

ومن هنا قال الله عن هدف الشيطان من الخمر والميسر: ﴿وَيَصَّدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ هل أنتم منتهون عن السير في خط اللاوعي والتناسي والغفلة؟ إنَّ أئمن ما في البشر هو ذكر الله، وتذكر المسؤولية والتعهد بأدائها.

والشيطان يدفع بالبشر في الخط المعاكس، أفلا نتوب إلى الله ونطرد الشيطان ونهجر كأس الغفلة، وأدوات العداوة؟

١٠

الشرك بين عبادة الملائكة وعبادة الشيطان

الشرك بالله يتبدى بفكرة القوى الغيبية الخارقة التي تسمى بالأرواح وتنقسم إلى:

- الملائكة: وهي القوى الخيرة.
- الأجنّة والشياطين: وهي القوى الشريرة.

فالملائكة كانت تعبد في الجاهلية باعتبارها بنات الله سبحانه، بينما كان الشيطان يعبد باعتباره نداءً لله ومنافساً لسلطته على الكون.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾^(١)، والمريد أي المتمرد دائماً عن إطاعة سيده.

والاعتقاد بالأرواح الشريرة منها والخيرة والاستعانة بها، وجعل رموز حجرية لها في شكل أصنام تُعبد، وتقدم إليها القرابين، كلّ تلك كانت أغللاً على طاقات البشر، وقيوداً

(١) سورة النساء، الآية ١١٧.

تعطل انطلاقته في الحياة.

إنّ الجاهلي الذي كان يتصور أنّ هبل هو الذي يشفيه من مرضه، لا يطلق طاقاته من أجل البحث عن الدواء، كما أنّه لم يكن يسعى من أجل تنمية ماله أو أرضه أو ماشيته أو تجارته سعياً عقلاً لأنّه مادام يعتقد أنّ بضع ذبائح تهدى إلى اللات تكفي لفعل المعجزة في حياته الاقتصادية.

وكان الجاهليون يعطلون عقولهم حين يتصورون أنّ الجنّة الشياطين توحى إليهم، وكان أحدهم يجلس في غرفة مظلمة، ويقوم بعملية إحاء ذاتي مستمر حتى يخيل إليه أنّ هاتفاً غيبياً يحاوره، وإنّما كان يحاور ذاته، ويجتر خيالاته وظنونه، وبالتالي كان كلامه لا يعدو تكراراً لا واعياً لما انطبع بقلبه من أفكار وانعكاسات، وبالطبع كان كلامه الواعي وغير الواعي مجرد أباطيل وأوهام تقف حاجزاً أمام انطلاقة فكره، وتحرك عقله.

الملائكة عباد مكرمون والشیطان رجيم ملعون

وقصة الملائكة تختلف عن قصة الشياطين فبينما الملائكة عباد مطيعون لله، لا يشفعون إلّا لمن ارتضى، وبالتالي التقرب إليهم لا ينفع شيئاً لأنّ الكلمة الحاسمة النهائية إنّما هي لله سبحانه، أمّا الشياطين فهم مطرودون من رحمة الله وملعونون، ولكنّهم اليوم في فسحة من المهلة، ولا يعني قيامهم بإضلال

البشر أنهم قادرون على مقاومة هيمنة الله، كلا.. بل يعني أن الله أمدهم بفترة من الوقت لكي يمتحن عباده بهم.

فالشيطان وهو إبليس: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾.

قال كما حكى عنه القرآن: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾^(١)، إن الشيطان وهو يمثل قوى الشر والخطيئة، ويدغدغ رغبات السوء في البشر، ويمد في جهله وضلالته. إنه جاد في إضلال الإنسان، وقد خطط للسيطرة على بعض أبناء آدم.

ولذلك قال: ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ وكأنه تقاسم مع الله البشر فأخذ طائفة معينة وترك طائفة لله سبحانه.

(١) سورة النساء، الآية ١١٨.



الفصل الخامس:

دور إبليس في إغراء الإنسان



خلاصة الفصل الخامس

وعود الشيطان أماني وأحلام تناسب وشهوات الفرد، وهي تشبه التبريرات الثقافية التي تروح إليها النفوس الكسولة والأمم المتخلفة.

يتسافل الإنسان عبر عدة مراحل تبتدئ بالافتتان، والتربص، والارتياب والشك، والاعتزاز بالأماني.

إن دور الشيطان الأساسي هو المعاضدة والإعانة على الانحراف.

الشيطان يستخدم سلاح الأماني في إضلال البشر، وعلينا كبشر أن نحذر من هذه الأماني حتى لا يعمل سلاح الشيطان فينا عمله الخطير.

الشيطان يخدع البشر بالمستقبل القادم حيث يمّيه غروراً،
 ويزين له أشياء يعده بها، وقد يضلّه بتصوير الماضي بطريقة
 تدفعه إلى الأعمال السيئة، أو بسيرة الآباء، أو بفلسفة التاريخ
 أو.. بمن حوله من الناس، بأولاده وزملائه، أو بأعدائه
 والمنافسين له.

الشيطان الثقافي أخطر على الإنسان من زملائه شياطين
 الثروة والإرهاب والزينة.

للإنسان عدوان: عدو داخلي وهو النفس، وعدو خارجي
 وهو الشيطان، وعلى الإنسان أن يتخذ موقفاً واضحاً من
 الشيطان لكي يتميز نداؤه التضليلي عن داعي الله.

كم تكون حسرة الإنسان إذا صار في الدنيا غرضاً للفتن،
 وفريسة للأمانى وهمزات الشيطان، وعاش بينهما متربصاً
 مرتاباً حتى يجيء أجله، وتضيع الفرصة قبل أن يُخلّص نفسه
 من النار، ليصير إلى بئس المصير!

١

ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴿١﴾ فَيَنْسُو الْقُرْآنَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّمَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَمَا نَذَرْنَا لَكَ مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ﴿٢﴾.

(١) المشرقين: أي المشرق والمغرب، وغلب المشرق لقاعدة الأثرف أو الأقرب إلى القصد.

(٢) سورة الزخرف، الآيات ٣٦-٤٥.

ذَكَرُ اللهُ نور ساطع يعيشو عنه البعض لأنهم لا يريدون
تحمل مسؤوليّاته، فيقيضُ لهم الله شيطاناً يقودهم إلى النار،
وذلك بأن يصدهم عن سبيل الحقّ، ويزين لهم الباطل
فيحسبون أنّهم على هدى.

وفي هذا السياق - كما في سياقات أخرى - نجد أنّ الآيات
تركز على تهوين شأن الدنيا، وتسفيه من يتخذ متاعها مقياساً
للحقّ، ذلك أنّ علاج الميل إلى الدنيا معرفة حقيقتها، ولكن
كيف يتم ذلك؟

إنّما بذكر الله فهو نور، وحين يعرض عنه البعض يبتلون
بالشياطين من الجن، وبقراء السوء من أبالسة الإنس الذين
يزيّنون للمحرومين أعمال السلاطين والمترفين من أدياء
العلم والدين.

وعند لقاء الله في ذلك اليوم الرهيب يكتشف المرء مدى
خسارته، فيقول لقرين السوء الذي أضله: يا ليت كنا
متباعدين في الدنيا كما تباعد المشرق عن المغرب، ولكن
هيهات لا ينفع يومئذ التبرؤ من قرينه الذي يلازمه إلى الأبد.
وحين يُضلُّ اللهُ أحداً لا تنفعه دعوة الرسول أو عظة
الناصحين. أو يسمع الأصم، أو يهتدي الأعمى، ومَن هو في
ضلال بعيد؟!، إنّ الذكر يشير إلى مسؤولية الإنسان عن هداه

أو ضلّالته، وتعذُّره بقرين السوء لا ينفع.

أمّا الرسول فما عليه إلاّ البلاغ فإذا عذب الله أولئك الضّالّ، بعد أن يذهب به أو في حياته، فإنّ الأمر بيد الله يعذبهم آجلاً أو عاجلاً.

إنّما عليه - وعلينا نحن التابعين له - أن يستمسك بالوحي، وأن لا تزلزله دعايات المترفين، فهو على صراط مستقيم.

إنّ القرآن هو ذلك الذكر الذي يعالج أمراض القلب، التي يجمعها حبّ الدنيا، وهو للرسول أولاً، ولقومه الأقرب فالأقرب، وسوف يسألون جميعاً عنه.

وهو الشرف الذي يسمو على شرف المال والجاه عند قريش، لأنّه يدخل المؤمن حصن التوحيد، ويفك عنه أغلال الشرك.

والتوحيد هو رسالة الأنبياء ﷺ، وهو يتنافى والخضوع لأصحاب القوّة والثروة.

٢

كيف نتحدّى فتنة القوّة وزينة الحياة؟

كيف نواجه إغراء المادة، ونتجاوز الافتتان بما لدى الكفار من مظاهر القوّة، وزخرف الحياة؟

إنّ الإنسان من تراب وكلّ شيء يحن إلى أصله، فحبّ الدنيا عميق في كيان الإنسان، وهو رأس كلّ خطيئة، فكيف الخلاص منه؟

علماً بأنّه من دون التطهر من حبّ الدنيا لا يخلص توحيد الإنسان، بل يظلّ يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، بل يشوب نيّته نزغات شيطانية حتى في الصالحات من أعماله، فلا يخلص - مثلاً - لقيادة الحقّ إلّا عندما توفر له متاع الحياة الدنيا، فإذا مُحصّ بالبلاء انهار في وادي الشرك.

الإجابة تتلخص في كلمة ذكر الله، فبه تفيض النفس سكينه، والقلب اطمئناناً. إنّهُ النور الذي يهزم ظلام الجهل والوسوسة والغفلة عن الفؤاد.

فعندما تعصف وساوس الشيطان بالنفس، وتتلاحق عليه نزغاته وهمزاته، لا يجد الإنسان مفراً إلا إلى الله، أولم يقل ربّنا: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

لماذا الشيطان قرين الذي يعيش عن ذكر الله؟

ولكن البعض يعيش عن ذكر الله، يتغافل عنه ويتجاهله، لا يستعيذ بالله، وقد يستسلم لنزغات الشيطان، ولا يتذكر أنه عدوّ مبين، وهنالك يتمكن منه الشيطان، ويعين له الله قرين سوء من الشياطين يقوم بأمرين:

- **الأول:** يمنعه من عمل الخير، ولا يدعه يسلك سبيل الرشاد، فيسلب بذلك توفيق الهداية عنه.
- **الثاني:** يزيّن له سوء عمله فيراه حسناً فلا يفلح أبداً.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ قالوا: أصل العشو النظر ببصر ضعيف، يقال عشا إذا ضعف بصره، وأظلمت عينه.

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٠٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

﴿نُقِيضُ﴾ نُعِينُ أَوْ نُتِيحُ ﴿لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(١)

يلازمه ولا يدعه لو حده ليله ونهاره.

ولعل استخدام اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ هنا لبيان مدى عمى الرجل الذي يعيش عن النظر إلى آثار من وسعت رحمته كل شيء، وتدبيره وهيمنته المصطبغين بالرحمة يمسكان بالكون. أفلا التجأ إليه من عادية إبليس، وفرَّ إلى كهف رحمته من عدوه المبين؟!

(١) سورة الزخرف، الآية ٣٦.

٣

هكذا الشيطان يبعد تابعه عن سبيل الله!

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوَنَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ بالضبط نقيض ما تفعله الملائكة بقلب المؤمن حيث تثبته على الطريق، وتزيل عن طريقه العقبات حتى يتوفق لعمل الخير، بينما قرين السوء يُسوِّف صاحبه التوبة، ويعرقل مسيرته إلى الله، ويلقي عليه الكسل كلما قام إلى الصلاة أو دُعِيَ إلى فعل الخير. إنَّه يملأ قلبه وعوداً كاذبة وأمانى ووساوس.

بل قد يفتح الشيطان أمام صاحبه باباً مستقبلياً من الخير حتى يمنع عن الخير العاجل، ثمَّ يمنع عن ذلك الخير أيضاً، قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾^(١) هكذا يزين الشيطان لقرينه الضلال حتى يحسبه هدى. وما دام الإنسان يشك في طريقته يرجى له النجاة، ولكن حينما يزين الشيطان له عمله فلا يجد في نفسه داعياً إلى التفكير في صحة نهجه وسلامة خطه، لا ينجو أبداً.

(١) سورة الزخرف، الآية ٣٧.

ونستوحي من الآية بصيرتين:

• **الأولى:** إن الخطوة الأولى في سبيل الضلال - كما في طريق الهدى - يخطوها الإنسان بكامل حريته، فإذا عشا عن ذكر الرحمن أضلَّهُ الله بقرين السوء، وإذا تذكَّر بصره وأعاذه من شر الشيطان.

إذن فمسؤولية الإنسان الكبرى هي اختيار الهداية بالاستعاذة بالله، بالإقلاع عن حالة التكبر الدونية إلى ساء العبودية لله.

• **الثانية:** لا يلغي مسؤولية الإنسان عن عقائده وأفعاله أنه يحسب أنها صحيحة مادام هذا الحسبان آتٍ من تزيين الشيطان. إنه كمن يلقي نفسه من شاهق يتحمل مسؤولية عمله حتى ولو فقد الاختيار أثناء دحرجته بين الصخور. لماذا؟ لأنه هو الذي سلب نفسه القدرة حين رمى بنفسه من علٍ.. كذلك الذي يرفض الالتجاء إلى الله فيقيض الله له شيطاناً يضلّه. إنه لا يزال مسؤولاً عن ضلالته لأن بدايتها منه.

وهكذا نستوحي من الآية أن مجرد الاعتقاد بشيء لا يبرّر المضي فيه ما لم يعتمد على منهج سليم، وإلا فكثير من المجرمين يعدّون أفعالهم صالحة.

لا نعرف حقيقة الزرع إلا عند الحصاد، وكذلك العمل لا نعرف حقيقته إلا عند الجزاء.

إذا أردت أن تعرف حقيقة شيء في الدنيا فانظر كيف يتجسّد في الآخرة، إذ إنّ تلك الدار هي المقياس. إنّها الحصاد الأكبر بينما الدنيا مزرعة وهل يعرف الزرع إلا بالحصاد!

وإنّما تصوّر لنا كتاب ربّنا مشاهد الآخرة، ويثّ في كلّ موضوع صوراً مناسبة لها من واقع الآخرة، بهدف جعلها مقياساً، ولعلنا نقرب أكثر فأكثر إلى حقائق الخلق، ولا ننظر إلى ظاهر من الحياة الدنيا.

وهنا في سورة الزخرف حيث تبين آياتها المحور السليم للحياة وهو التوحيد، لا المال ولا الصداقة القائمة على أساسه، ويكشف عن مزالق الانحراف التي من بينها أصدقاء السوء أو البيئة الاجتماعية، وبخاصة حين يود المرء مجارة المنحرفين بسبب البريق المادي الذي يحيط بهم، أو بسبب التآلف الاجتماعي.

ويبيّن لنا القرآن مشهداً من مشاهد الصراع القائم هنالك بين أصدقاء السوء هنا، فيقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ وحضر عند ربّه هذا الذي عشا عن ذكر الله ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ

بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿١﴾ يتمنى يومئذ أن يكون بينهما ما بين المشرق والمغرب لما يجد من سيئات الاقتران به.

لماذا لا ينفع التبري يوم القيامة؟

كلا، لا ينفع التبرؤ من البعض، ولا ينفع التبرير، لأنّ الظلم قد وقع فعلاً بكامل اختيارهم، والنار تسع الجميع قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ﴾ أي لا يجديكم نفعاً أنكم تتمنون التباعد عن بعضكم، إذ إنه جاء متأخراً بعد أن ظلمتم أنفسكم، قال تعالى: ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٢).

قالوا: لا ينفعكم اشتراككم في العذاب شيئاً إذ لا تتقاسمون العذاب بل لكل الحظ الأوفر.

وقالوا: لا يتسلّى أحد بعذاب غيره فليست هنالك البلية إذا عمت طابت، لأنّ العذاب هنالك لا يطيب لأحد أبداً، لأنّه شديد ودائم.

ولأنّ قرناء السوء في خصام دائم مع بعضهم فلا يتسلّى أحد أبداً.

(١) سورة الزخرف، الآية، ٣٨.

(٢)، سورة الزخرف، الآية ٣٩.

أو تهدي العمي؟ كلا كذلك كان في ضلال مبين

وحين يُضِلُّ قرين السوء صاحبه يكون مثله مثل الأعمى والأعمى، قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ كلا، لأنَّ جهاز الاستقبال معطل عنده فكيف يستمع، وقد قال الشاعر:

لقد أسمعنت لو ناديت حياً

ولكن لا حياة لمن تنادي

قال تعالى: ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١) كلا، لأنَّ من انحرف عن الطريق قليلاً ترجى أوبته إليه، ولكن الذي شط بعيداً حتى أحاطت به الضلالة كيف يمكن هدايته؟

هكذا ينبغي اليأس عمَّن استبد بقلبه حبَّ الدنيا فأخذ يقيس كلَّ شيءٍ بالمال والجاه، والقوَّة الظاهرية. إنَّه في ضلال مبين، ولا يعجبك ما عنده فتفكر في كسبه بأية وسيلة فتقدم له التنازلات من دينك ومواقفك، كلا، ما عند الله خير وأبقى.

إنَّ عاقبة هؤلاء العذاب في الدنيا وقبل العذاب الأكبر عند ربِّهم، وسواءً تمَّ ذلك بعد وفاتك أو في حياتك فإنَّهم معذبون، فلا تغررك أموالهم وأولادهم، ولا يجزئك مكرهم ودعاياتهم، ولا تستعجل عليهم فإنَّ العذاب الذي ينتظرهم شديد.

(١) سورة الزخرف، الآية ٤٠.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾^(١) إنَّ وجود الرسول والمؤمنين بين الكفار قد يؤخر عنهم العذاب إلى أجل محدود، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٢).

ولكن قد يعذب الله الكفار في عهد الرسول وبمشهد منه أو بمشهد من الدعاة إلى الله من أتباعه، لكي يريهم قوته ويقرَّ أعينهم بنصره.

قال تعالى: ﴿أَوْ نُرِيَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾^(٣) فلا تنفعهم ثروتهم أو قوتهم شيئاً.

(١) سورة الزخرف، الآية ٤١.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٣.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٤٢.

٤

كيف أخرج الشيطان بني آدم من الجنة؟

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾^(١).

إن إبليس أزل أبانا آدم وزوجه، ولكن بماذا؟

بتلك الطبيعة الموجودة عندهما، فأخرجنا من الجنة وأبعدنا عن الطبيعة المسخرة لهما. وهكذا سوف يُزَلُّ إبليس أبناء آدم، ويبعدهم عن الجنة في الآخرة، وعمّا سخر الله للإنسان في الحياة من النعم، إذا أطاعوه.

ما هي هذه الشجرة التي نهى الله آدم عليه السلام عن الاقتراب إليها، هل كانت شجرة التفاح، أم العنب، أم كانت الخنطة، أم ماذا؟

(١) سورة البقرة، الآيات ٣٥-٣٦.

ليس المهم أن نفهم ذلك بل المهم أن نعرف العبرة من وراء القصة، وهي: أن في الطبيعة أشياء تضر الإنسان وقد نهى الله عنها، وعلى الإنسان أن يتعد عنها حتى يتمكن من الاستمرار في تسخير الحياة. ولكن إبليس يثير النفس الأمارة بالسوء، ولا يدع الإنسان حتى يدفعه إلى تلك الأشياء المنهي عنها الضارة. وهنا يطرح هذا السؤال:

كيف يخرج الإنسان من جنة النعيم حين يرتكب الخطيئة ويتبع الشيطان والنفس الأمارة بالسوء؟

الجواب: هناك طرق شتى، ولكن أبرزها: هبوط الإنسان إلى مستنقع الخلافات البشرية حيث يبدأ الناس بظلم بعضهم بعضاً ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١).

(١) سورة البقرة، الآية ٣٦.

٥

التبرير وسيلة الشيطان

الشيطان الذي هو النداء الداخلي الذي يوسوس للقلب، فيتبعه الإنسان، وهو الذي دلّى أبانا آدم بغرور فأخرجه من الجنة، وهو بالتالي إبليس الذي تمرد على الله واستكبر، وعزم على خداع البشر، إنّه هو الآخر أخلف وعده، وكان من قبل يزعم أنّه قوي، وأنّه سوف يغيث الذين يتبعونه، فهذا هو يشمت بمن يتبعه قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ الذي له من العقل والعلم على صدقه شواهد وحجج.

ثمّ أردف قائلاً: ﴿وَوَعَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ووعود الشيطان أمانى وأحلام متناسب وشهوات الفرد، وهي تشبه التبريرات الثقافية التي ترتاح إليها النفوس الكسولة والأمم المتخلفة، مثل انتظار المستقبل بلا سعي يصنعه، وإلقاء المسؤولية على عاتق الزمن، أو لا أقل على كاهل الآخرين أموات أو أحياء.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، إنَّ جذر التبريرات التي يلقيها الشيطان الرجيم في فؤاد الإنسان هو إشعاره بأنَّه مكره على أفعاله، وأن قضاء حتمياً يفرض عليه هذا العمل أو ذاك، وذلك بتحويل الأشياء والأحداث والأشخاص عنده، وتصغير نفسه أمامها وتحجيم دور الإرادة عنده، مثلاً يقول له:

إنَّ تغيير سيرة الآباء مستحيل، أو إنَّ تغيير الأوضاع السياسية أو الاقتصادية أمر لا نقدر عليه، أو إنَّ مخالفة هذا الحاكم وذلك المستكبر غير ممكنة، أو يقول له:

كيف تقوم الخطبة وقد عملت فيها السنون ما عملت؟ وكيف تغير الزمان وقد أفسده السلطان؟ وما أنت وماذا عسى أن تفعل؟

وفي يوم القيامة يعترف الشيطان، بأنَّه كان خادعاً في قوله هذا، وإنَّ إرادة الإنسان هي التي تصنع واقعه، وأنَّه لا حول ولا قوَّة له، فلا يغيث ولا يغاث، قال تعالى: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي﴾ فلا أنا أغيثكم ولا أنتم، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾ وحقبة الإشراك هو

أن تعتقد أن أحداً أو شيئاً غير الله إله لا يغلب. كلا، بل كل شيء خاضع لله، ولمن يتوكل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١) إذا كان جذر التبريرات سلب إرادة البشر، وتهويل ما دونه في عينه، فإنّ العنوان الظاهر لكل التبريرات هو سلب مسؤولية الفرد عن جرائمه، لذلك أكد الشيطان في يوم القيامة أنّ للظالمين عذاباً أليماً، فهم لا يستطيعون أن يهربوا من مسؤولياتهم أبداً.

(١) سورة ابراهيم، الآية ٢٢.

٦

ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ حينما يرى الظالم أن الجنة والنار بيد الله سبحانه، وأن الطاعة أو العصيان للرسول هما المقياس عنده لدخول أحدهما، فإنه يندم على ما فرط في جنب الله ورسالته، ويتمنى لو كان متبعاً للرسول، وسبيله الحق.

قال تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ يدعو على نفسه متندماً قال تعالى: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ الذي أضله من صديق سوء أو سلطان جائر أو ضرب شيطاني، ولكن ماذا ينفعه كل أولئك، وقد ضلّ بما زخرف له هؤلاء الأخلاء؟ فترك رسالة الله سبحانه، وعليه إن أراد أن يتخلص من النار، ويزحزح إلى الجنة أن يتخلص من الولاءات الشيطانية في الدنيا، ويخلص ولاءه لله ولن أمر الله بولايته.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وكثير

أولئك الذين يتبعون أصدقاء السوء الذين يضلون الناس عن ذكر الله بدعوتهم للمعاصي، ويبدو أن مشكلة أصدقاء السوء إلهاء الإنسان عن ذكر الله ببعض التوافه، ولذلك ينبغي أن يبتعد المؤمن عن مجالس اللهو واللغو وحفلات البطالين ويأوي إلى روضات الجنات، ألا وهي مجالس العلماء، وحلقات الذكر، ومدارس العلم، وجلسات العمل في سبيل الله.

وهذا الشيطان الذي يدعوك للمعصية هو الذي يخذلك في ساعة العسرة، ويتبرأ منك بحجة أنه يخاف الله رب العالمين، وقد ورد في الحديث أن الشيطان يبصق في وجوه تابعيه يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾^(١).

(١) سورة الفرقان، الآيات ٢٧-٢٩.

٧

وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم

حينما أخبر الله سبحانه وتعالى رسوله بأنه سينزل ملائكة من السماء لمساندة المؤمنين في حربهم مع المشركين فإن ذلك لا يعني أنهم سوف يجاربون بديلاً عنهم، كما لا يعني وجود دعم غيبي للمؤمنين إن هذا الدعم يغنيهم عن العمل الجاد. كلا..

بل يعني العكس وهو ضرورة العمل الجدي حتى تحقيق الهدف بالاعتماد على الدعم السماوي، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، أما النصر فهو من عند الله يقضيه لمن تتوفر فيه شرائط النصر وعوامله ومنها بالطبع إرادة النصر، والعمل من أجله، وتذويب الأنانيات من أجله. ذلك لأن ربنا إلى جانب قوته وقهره فهو حكيم لا يهب النصر لمن لا يستحقه قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

والملائكة إحدى وسائل النصر، وهناك وسائل أخرى يوفرها ربنا إذا شاء، مثلاً في حرب بدر كانت الأعصاب متوترة، والنفوس ملتهبة هلعاً والأجسام تثقل بالأوساخ، فبرّد الإيمان والتوكل أفئدة المسلمين، حتى مالت إلى الراحة والنعاس فاستراحت الأعصاب، واستعدت لمعركة حاسمة في اليوم التالي، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ التُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ حين يتوكل العبد على ربه يستريح في ظلال الثقة به وبتقديره فلا يحرق أعصابه بل يعيش في كنف أمان ربه.

والمؤمنون حقاً هم الذين يزدادون إيماناً في ساعة العسرة لأنّ تلك الساعات تكشف جوهر البشر وطبيعته الكامنة.

قال تعالى: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ ذلك لأنّ كثيراً من الجراثيم التي يتلوث بها الجو وتنتقل عبر الهواء والماء من شخص لآخر تموت بعد المطر، فيرتاح منها الجيش الذي تكثر فيه احتمالات الخطر.

قال تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ وحين يتلطف الجو بهاء السماء يسعد الناس ببركات الله، فتطمئن قلوبهم ويذهب عنها الخوف والتردد، كما يذهب بالمطر النجاسة المادية التي تؤثر في النفس أيضاً وذلك عن طريق الوضوء والعمل.

قال تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(١)،
 فحين يرى المسلمون السماء تمطر عليهم يعرفون أنّ هذا المطر
 من نعم الله، فأنشد يزدادون إيماناً برحمة الله، وأنّ بيده بركات
 السماء والأرض وبذلك تطمئن نفوسهم، وينعكس ذلك على
 ممارساتهم الحياتية بالاستقامة والثبات.

(١) سورة الأنفال، الآيات ١٠-١١.

٨

دور إبليس في إغراء الإنسان

الهالك يسحب من حوله إلى الهلاك، كما الناجي يريد لمن حوله النجاة مثله، وإبليس حين أمره الله بالسجود تكبر فأخرجه، وهكذا أضمر حقداً مركزاً ضد أبناء آدم الذي بسببه طرد من السماء.

قال تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إنه يقعد لنا، أي: يرصدنا ويمكر بنا، ومكره يتجسد في محاولة سلب نعمة الاستقامة منا.

ويسعى إبليس بكل وسيلة ممكنة لكي يضلنا، قال ربنا تعالى: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ قد تكون هذه الجهات رمزاً لإحاطة الشيطان بأبناء آدم من كل مكان، حتى يتحسس البشر بمدى الخطر الذي يهدده، فلا يكون في الحياة مهملًا، فارغ البال، ضعيف العزيمة، بل يكون جدياً ذا فعالية كبيرة.

وقد تكون رمزاً لأساليب الشيطان، حيث يجذع البشر بالمستقبل القادم من بين يديه حيناً، حيث يمينه غروراً، ويزين له أشياء يعده بها، وقد يضلّه بتصوير الماضي بطريقة تدفعه إلى الأعمال السيئة، أو بسيرة الآباء، أو بفلسفة التاريخ أو.. بمن حوله من الناس، بأولاده وزملائه، أو بأعدائه والمنافسين له.

المهم: أن يعرف البشر أنه لو لم يتصل بالله سبحانه، ويستعد استعداداً كاملاً، لأحاط به مكر الشيطان وأرداه وأهلكه، فلا يصبح شاكراً لأنعم الله عزّ وجلّ وجميل فضله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ وهذا في الواقع أسلوب خبيث يستخدمه إبليس، حيث يربط النعم بنفسه، أو بالأولياء من دون الله، والذين هم أدوات له وليس بالله سبحانه.

والله تعالى أعطى البشر العلم والإرادة، وحذّره من الشيطان، وبذلك كلفه مسؤولية الدفاع عن نفسه، ضدّ هجمات إبليس قال تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُدْحُورًا﴾ أي أنه بعيد معنوياً ومادياً حيث أنه يذم ويطرد، قال تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١) أي بالتأكيد إن من يتبعك من البشر سيكون مكانه جهنم مع إبليس.

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٦-١٨.

٩

الخمير والميسر من عمل الشيطان

في طليعة ما حرّمته الشرائع الإلهية الخمر والميسر لأنّهما يهبطان بإرادة الإنسان وعقله إلى أدنى مستوى، وهما بالتالي رجس وحرام لأنّهما من عمل الشيطان الذي يثير الشهوات وينقص العقل ويضعف الإرادة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾^(١) إنّ الفلاح الذي هو الهدف الأسمى
لكل ابن أنثى في الحياة لا يتحقق إلا بالسيطرة على شهوات
الذات بقوة الإرادة.

أمّا اللهو فإنّه يضعف هذه الإرادة ويشير المشاكل للبشر
واللهو هو ذلك الرجس الذي يدعمه الشيطان.

(١) سورة المائدة، الآية ٩٠.

١٠

الإنسان بين السعي والتمني

من الناس من يصارعون الحقّ ويسعون في آيات الله معاجزين متحدين، ومنهم من يتمنى بدون تقدير للأسباب، فيخلط بين الحقائق والأحلام، بين ما هو حقّ وواقع، وبين ما يصبو إليه ويتطلع نحوه.

ولعل العلاقة بين المعاجزة والتمني المجرد عن السعي، هي أنّ كلا الموقفين نابعان من عدم التسليم للحقّ كما هو، مع فارق في الطريقة؛ فأصحاب المعاجزة يتحدون الحقّ، ويكفرون به، بينما أولو التمني كأثمهم لا يؤمنون بالسنن الإلهية التي قدّرها في خلقه؛ فتارة يتصورون أنهم بمجرد الإيمان يكونون قد أدوا ما عليهم، وقد أصبحوا بمنأى عن الفتنة، وهو ما نفاه الذكر في مطلع سورة العنكبوت في قوله تعالى:

﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٥١﴾
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾، بل وجعلت هذا التصور الخاطيء بإزاء تصور الكفار والمنافقين الخاطيء: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٢﴾.

وتارة أخرى يرفضون طريقة تحقيق الحق، وتكريسه، من السعي والاجتهاد والقتال، ثم القبول بالتناج، لكن الذكر يقرر في قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتِ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿١٣﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٤﴾.

فإذن فالفارق بين بصائر الأنبياء ﷺ وتمنيات الحالمين

يتجلى في أمرين:

- (١) سورة العنكبوت، الآيات ٢-٣.
- (٢) سورة العنكبوت، الآية ٤.
- (٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٣.
- (٤) سورة المائدة، الآية ٤٨.

• أن البصيرة قائمة على التقدير الحكيم والدراية
بالأسباب.

• كما أنّها مقرونة مع الجهاد والسعي.

من هنا لا ينبغي أن يسترسل المؤمن مع زخم أمنياته
فيذهب مع رياح الأحلام، أنى اتجهت، وحتى الأنبياء العظام،
والرسل الكرام ﷺ لو تمنوا بطبعهم البشري؛ مثلاً هداية الله
للناس جميعاً، أو هلاك الظالمين فوراً، أو سعادة الخلق بوافر
نعمائه، أو خلود الصالحين، وما إلى ذلك من توقعات تنبع
من فرط حس للخلق وللقيم الرسالية، فإنّ هذه الأمنيات لا
تتحقق لأنّها لا توافق سنن الله في خلقه.

و على المؤمنين أن يعرضوا تمنياتهم على الحقّ الذي أنزله الله
في آيات الكتاب فيلزموا أنفسهم حقائق الكتاب ويعرفوا أن
الله قد خلق الدنيا دار ابتلاء، ولم يجعلها دار جزاء، حتى يعجل
للكفار العذاب، أو للمؤمنين بالشواب!

وأنّ الهداية ليست كرها على الناس، وأنّ الله قد فرض
القتال على المؤمنين لحكمة بالرغم من أنّهم له كارهون.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا
نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إنّ النبيّ أو

الرسول يتمنى، ويسعى حثيثاً ويجاهد دائماً في سبيل هداية الناس، ولكن الشيطان يمكر ضدّ تحقيق هذه الأمنيات، قال الله تعالى: ﴿فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ بإبطال سعي الشيطان، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ بالتأييد الذي يجعل كلمة الرسول نافذة تامة.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١) فهو يحيط علماً بمكر الشيطان ويبطله بحكمته.

ومن المفارقات الغريبة أننا نجد تلفيقات من إلقاءات الشيطان حول هذه الآية، حيث جاء في بعض الأخبار المروية الملفقة والكاذبة:

أن رسول الله ﷺ جلس في أحد نوادي مكة، وقرأ على المشركين سورة (النجم) حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾^(٢). أضاف إليها: (وإنهن لهن الغرائيق العلاء، وإن شفاعتهن لهي ترتجى)، وثم مضى في قراءة السورة حتى انتهى إلى السجدة في آخرها فسجد وسجد المشركون معه، ولم يتخلف منهم أحد، فأعلنت قريش رضاها!

(١) سورة الحج، الآية ٥٢.

(٢) سورة النجم الآيات، ١٩-٢٠.

وفي بعض هذه الروايات الموضوعة أنّ رسول الله ﷺ كان يقرأ سورة النجم في الصلاة، فعندما كان يقرأها فإذا بأحد خلفه يردد كلمات الغرائيق فرددها الرسول عدة مرات على غفلة منه، فنزلت هذه الآية.

وإنّ هذه الروايات الموضوعة لا يمكن التصديق بها لأنّ سورة النجم نزلت في مكة وسورة الحج والتي فيها هذه الآية نزلت في المدينة، وسورة النجم التي تحتوي على سجدة واجبة لا تقرأ في الصلاة الواجبة.

١١

كيف يضل الشيطان البشر بالأمانى؟

الشيطان يستخدم سلاح الأمانى في إضلال البشر، وعلينا كبشر أن نحذر من هذه الأمانى حتى لا يعمل سلاح الشيطان فينا عمله الخطير.

الشيطان يمّنى الإنسان بطول العمر، وبالخلود في الدنيا ويمنّيه بالملك الدائم والثروة الطائلة، وهكذا يصوّر الشيطان للإنسان أن الوصول إلى أهدافه ممكن عن طريق ملتوٍ. ويأمر الشيطان الإنسان فيما يأمره من الضلالة لئيبك آذان الأنعام، ويغير خلق الله.

إنّ ذلك يمثل ضلالة الشيطان التي يأمر بها الإنسان، إنّه يمثل دعوة الشيطان للإنسان بأن ينحرف عن طريق الاستفادة من الطبيعة إلى طريق إفساد الطبيعة.

إنّ الله خلق الأنعام وخلق كلّ عضو فيها نافعاً لها ومؤدياً وظيفه في جسدها، وبالتالي جعل كلّ عضو من أعضائها يؤدي

بصورة غير مباشرة خدمة للإنسان، ولكن الشيطان يُضل البشر ويجعله يفسد أعضاء الحيوان، وبالتالي يسقط منافعه المرتقبة له.

قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّتْهُمْ وَآمَنَتْهُمْ وَلَا مَرْئِيَهُمْ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلْيَبْتَئِنَّا آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلْيَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾، ولذلك فمن يتبع الشيطان فإنه يخسر منافع الحياة، لأن الشيطان يبعده أبداً عن الطرق السليمة للاستفادة من الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾^(١).

الشيطان بالغرور يعد ويمني

ترى ماذا يقول الشيطان للإنسان؟

يقول: غداً وبعد غد سوف تحصل على كذا وكذا، فإذا بلغ غده يعده بما بعده حتى يبلغ أجله ولا يصل إلى شيء مما وعده الشيطان ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٢).

وما العاقبة إلا جهنم!

أمّا في الدنيا فسوف يصابون بتائج غرورهم، وأمّا في الآخرة فجزاؤهم فيها جهنم لا يستطيعون منها فراراً.

(١) سورة النساء، الآية ١١٩.

(٢) سورة النساء، الآية ١٢٠.

﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾^(١) أي لا يزحزون عنها قيد أنملة، والكلمة من: حاص يحيص أي تحرك في مكانه.

عقبى الصالحين جنات خالدة

أما المؤمنون الذين لم يخلطوا بإيماهم شركاً، وأخلصوا العبادة لله الحق، فإن جزاءهم الجنة، وهذا وعد من الله ولكنه وعد حق، بعكس وعود الشيطان الكاذبة لأن الله أجل وأعظم من الكذب، ولا يدعو إلى الكذب حاجة أو جهل سبحانه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ذلك هو منتهى تطلع الإنسان أن يسكن جنة تتوفر فيها حاجاته الجسدية، المتع النفسية، ومن أبرزها الأنهار التي تضيء جمالاً على الجنة، وأن يكون مطمئناً إلى مستقبله، وأنه خالد لا يزعه موت أو طرد عن النعيم المقيم فيه ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٢).

(١) سورة النساء، الآية ١٢١

(٢) سورة النساء، الآية ١٢٢.

١٢

مراحل التسافل عند الإنسان

قال تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

بعد أن يُضرب السور بين الفريقين في الآخرة ينادي المنافقون المؤمنين، والنداء يختلف عن القول؛ بأن القول يعني المخاطبة عن قرب، أمّا النداء فهو المخاطبة عن بعد، أو من وراء حجاب وبصوت مرتفع، يقصد به المنادي إسماع الطرف الآخر كلامه، ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ نداء استغاثة وحسرة: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾، وهناك يجيبهم المؤمنون بما هو قول فصل: • **أولاً:** بيان حقيقة الانتماء، بأنه ليس مجرد التصدق

(١) سورة الحديد، الآيات ١٣-١٤.

اللفظي، إنما يتحقق الانتماء بالعمل المتجانس، والخط المشترك، وهذا ما لم يتحقق في واقع المنافقين، لأنهم أوقعوا أنفسهم في الفتنة حين اجتنبها المؤمنون، وتربصوا حين أقدموا، وشككوا حين تيقنوا، واغترتوا بالأمان حين سعوا، واستجابوا لنداء الشيطان حين استعاذوا منه، وأمسكوا بخلاً وأمروا الناس به حين أنفقوا.

• **ثانياً:** بيان مراحل التسافل والهلاك عند الإنسان، وهذه أوضح آية في القرآن من حيث ترتيبها بالتتالي، وهي:

المرحلة الأولى: الافتتان

والفتن لغوياً هو وضع المعدن كالذهب في النار، وسمي الابتلاء فتنة لأنَّ الإنسان أثناءه يكتوي بنيران الحوادث والمتغيرات، ويواجه التحديات والضغوط الصعبة والحاسمة بعض الأحيان.

والسؤال: كيف يفتن الإنسان نفسه؟

ونجيب: حينما يريد الإنسان أن يكون مخلصاً لربّه، بعيداً عن الضلالة والانحراف، يجب أن يتجنب مضلات الفتن ومظانها، فلا يدخل فيها ولا يتفاعل معها، إنّما يكون كما

نصح أمير المؤمنين عليه السلام: «كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابِنِ اللَّبُونِ؛ لَا ظَهْرٌ فَيَرْكَبُ، وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبُ»^(١)، فلا يسافر في البلاد التي تصرعه فيها الفتن، أو يقع فيها بيد الظالم، ولا يقرأ أو يتصفح الكتب والمجلات التي تضله، ولا يدخل في الصراعات السياسية والاجتماعية التي تضر بدينه.

وقال الإمام علي عليه السلام: «لَا تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَبِهَا، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا»^(٢)، وهذا هو حال المؤمن. إنه محتاط لدينه، ويمشي في الأرض كما يمشي المقاتل في حقل الألغام، أما المنافق والكافر الذي يبحث عن المغامر الدنيوية فإنه يقتحم الفتن، ويخوض فيها خوضاً، لهثاً وراء الدنيا.

قال تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) أي أدخلتموها في الفتنة بإرادتكم، بهدف اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر في حطامها وملذاتها، وهناك فرق بين من يتعرض للفتنة عن غير إرادة ثم يتبع منهج الإسلام في التعامل معها أو يدخل نفسه ليقاومها، وبين من يدخل نفسه في الفتنة بإرادته لا ليتحداها، إنما ليكون غرضاً لها، ولتكون الدنيا

(١) نهج البلاغة، الحكمة رقم ١.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٨٧.

(٣) سورة الحديد، الآية ١٤.

والهوى غرضه من دخولها.

ولعل الاغترار بالدنيا أظهر مصاديق فتن النفس، وفي الكلمة ظلال لمعنى أضللتهم، تشابهاً مع قول الله لنيبه: ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾^(١) أي يضلوك.

المرحلة الثانية: التريص

﴿وَتَرَبَّصْتُكُمْ﴾ بتسويق الالتزام بالحق، وانتظار التغيير في المستقبل، ذلك أن الإنسان مهما توغل في الانحراف ودخل في الفتن، فإن الله يبين له الحق ليقوم عليه الحجة ولو في لحظات؛ إما بيقظة الضمير أو بموعظة داعية، أو من خلال اصطدامه بمشكلة تنبهه إلى خطئه، ولكنه في الغالب لا يلزم نفسه الحق مباشرة، إنما يسوّف التوبة، ويستمر في الفتنة حتى تفوته الفرصة.

والإمام عليّ عليه السلام يحذّر من هذه الحالة إذ يقول: «فَاتَّقَى عَبْدُ رَبِّهِ نَصْحَ نَفْسِهِ وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيُرَكِّبَهَا، وَيُمَيِّهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا، فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي عَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمْرُهُ عَلَيْهِ

(١) سورة المائدة، الآية ٤٩.

حُجَّةً، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشَّقْوَةِ»^(١).

المرحلة الثالثة: الارتباب والشك

﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَبْصُرُ الْإِنْسَانَ بِالْحَقِّ، وَيَبِينُ لَهُ الْخَطَأَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَقْدَمَ عَلَى التَّغْيِيرِ اهْتَدَى، وَإِلَّا فَإِنَّ التَّرْبِصَ يَحْوُلُ يَقِينَهُ إِلَى شَكِّ، وَالْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: «لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا، وَيَقِينَكُمْ شَكًّا؛ إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا، وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا»^(٢).

والإنسان حينما يُقدم عملياً على الالتزام بالحقّ تتعمق قناعته به، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٣)، وفي غير هذه الصورة يبدأ يشكك نفسه ليتخلص من وخز الضمير وملامة النفس اللوامة، فإذا نصحه إخوانه بالأوبة إلى هذه الصورة أخذته العزة بالإثم، وأنكر الحقّ، وقال كما قال الكافرون للذين آمنوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾^(٤)، وهذه الصفة تنفي انتماؤهم للمؤمنين لقوله تعالى بالحصر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٦٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

(٤) سورة الأحقاف، الآية ١١.

هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١١﴾، وادعاء المنافقين أنّهم من المؤمنين ومعهم مجرد محاولة لإلصاق أنفسهم بهم والتخلص من العذاب، وإلّا فهم لم يؤمنوا بالله ولا برسوله ولم يستجيبوا لدعوته المتمثلة في الآيات البيّنات المنزلة على رسوله ﷺ فبقوا في الظلمات.

المرحلة الرابعة: الاغترار بالأمني

ذلك أنّ الحقّ واضح مبين تتلاحق أمام الإنسان آياته، وله ثقل عظيم على الواقع ومنافع لا تحصى، وينسجم مع فطرة الإنسان وسنن الله في الخليقة، والانحراف عن مثل ذلك يتطلب جهداً، ولا يكون إلّا بوسائل، ومن وسائله الغرور بالأمني التي تتلاحق في وعي المنحرفين كشلال أسود لا يكاد المبتلى به يقدر على مراجعة قراراته والتدبر في عواقب أموره.

إنّ الشك والتردد إمّا يحسمه الإنسان باتجاه الحقّ من خلال التوبة والعمل، وإلّا فإنّه سيبقى على الباطل حتى يوافيه الأجل، وتضيع منه فرصة التغيير، بسبب الأمني التي ينفخ فيها الشيطان، كالتشبث بالقشور وبعض الأعمال الجانبية التي يسعى البشر لتبرير أخطائه الفادحة بها.

ومن الأمني أيضاً النظرة الخاطئة لغفران الله، والاعتماد على

(١) سورة الحجرات، الآية ١٥.

شفاعة الأولياء، ولذلك حذر أئمة الهدى عليهم السلام شيعتهم من المنى، قال الإمام علي عليه السلام:

«وَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ بِالسُّورِ بِيَاطِنِ الرَّحْمَةِ وَظَاهِرِ الْعَذَابِ، فَتَنَادُونَ فَلَا يُسْمَعُ نِدَاؤَكُمْ، وَتَضْجُونَ فَلَا يُحْفَلُ بِصَجِيحِكُمْ»^(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«تَجَنَّبُوا الْمُنَى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ بِهَجَةٍ مَا خُوِّلْتُمْ، وَتَسْتَصْغِرُونَ بِهَا مَوَاهِبَ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَكُمْ، وَتُعْقِبُكُمُ الْحَسِرَاتُ فِيمَا وَهَمْتُمْ بِهِ أَنْفُسَكُمْ»^(٢).

وإنما يُنال ما عند الله بالعمل والسعي، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٣)، والتمني يوقف مسيرة الإنسان باتجاه التغيير والعمل، لأنه يستبدل السعي بالأحلام والوهم، وربنا يستنكر على المنافقين والكافرين تمنياتهم إذ يقول: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾^(٤) أم للإِنسَانِ مَا تَمَنَّى؟!

قال تعالى: ﴿وَعَرَّثَكُمْ الْأَمَانِي﴾ أي خدعتكم، والأمانى

(١) بحار الأنوار، ج ٩٤، ص ١١٦.

(٢) الكافي، ج ٥، ص ٨٥.

(٣) سورة النجم، الآية ٣٩.

(٤) سورة النجم، الآيات ٢٣-٢٤.

هي الأحلام والظنون التي يصنعها الإنسان بخياله المنبعث من شهواته، والذي يدخل في هذا النفق قد لا يتخلص منه، بل يبقى في غروره حتى الموت، وهذا ما صار إليه المنافقون، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي نصره المؤمنين، أو أجله الذي لا تأخير فيه، وحينها لا تنفع التوبة، فإذا جاءت المنية بطلت الأمنية.

وقبل أن يختم ربنا الآية يشير إلى دور الشيطان في خداع الإنسان الذي يتمثل في تزيين المعاصي، وتأكيد الأمنيات في النفس، وليس له سلطان على أحد، جاء في الدعاء عن الإمام السجاد عليه السلام وهو يشكو إلى الله سبحانه عدوه المضل وهو الشيطان:

«إِلَهِي أَشْكُو إِلَيْكَ عَدُوًّا يُضِلُّنِي وَشَيْطَانًا يَغْوِينِي، قَدْ مَلَأَ بِالْوَسْوَاسِ صَدْرِي، وَأَخَاطَتْهُوَ جِسْمُهُ بِقَلْبِي، يُعَاضِدُ لِي الْهَوَىٰ، وَيَزِينُ لِي حُبَّ الدُّنْيَا، وَيَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّاعَةِ وَالرِّفْقَى»^(١).

إن دور الشيطان الأساسي هو المعاونة والإعانة على الانحراف، وتأكيد النصوص الإسلامية على هذه الحقيقة (وذكره في هذه الآية في صيغة الاستدراك) كل ذلك يأتي لكيلا يعتبر البشر وساوس الشيطان تبريراً للانحراف والضلالة،

(١) الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكين.

وأنه مجبور عليها.

قال تعالى: ﴿وَعَرَّكُم بِاللَّهِ الْعَرُورُ﴾ يعني الشيطان إنسيًا كان أو جنياً. ﴿الْعَرُورُ﴾ صيغة مبالغة، تدل على أن ذلك عمله وديدنه، ولا ريب أن الإعلام المضلل الذي ينشر ثقافة الفساد كتابة وصوراً وصوتاً، وكذلك الأنظمة الفاسدة التي تركّز حب الدنيا واتباع الهوى في المجتمع، هما من أبرز مصاديق هذه الآية الكريمة، كما أصدقاء السوء من مصاديقها.

١٣

بنو آدم بين عدوين:

الشیطان والنفس الأمارة

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّبَكُمُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّبَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ
عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ
السَّعِيرِ﴾^(١).

إنّما يكذب الناس برسالة الله لأنهم عبدوا الدنيا وما فيها
من مباحج وزينة، فبعض غرتهم الدنيا مباشرة كالطغاة
والسلاطين وكثير من الناس، وبعض غرهم المغرورون بالدنيا
من هؤلاء، وإنما أهلك هؤلاء السذج اتباعهم لأولئك من
دون لذة أو شهوة.

فترى أدعياء الدين والعلم يستخدمهم السلاطين للتغريب
بالبسطاء من الناس فيسلبون منهم دينهم ودنياهم، وإنّما يرفل

(١) سورة فاطر، الآيات ٤-٥.

بالنعم الطغاة وأعوانهم، ولا يبقى للضعفاء سوى الضلالة والغرور ﴿فَلَا تَعُرِّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(١). وقيل إنَّ الغرور: هو الشيطان.

للإنسان عدوان:

• عدو داخلي وهو النفس.

• عدو خارجي وهو الشيطان.

وعلى الإنسان أن يتخذ موقفاً واضحاً من الشيطان لكي يتميز نداؤه التضليلي عن داعي الله، ذلك أن الإنسان يملك في نفسه قوتين متضادتين هما: العقل والهوى، ويؤيد العقل الملائكة، بينما الهوى يدعمه الشيطان، ومن مكر الشيطان بالإنسان خلط الأوراق عليه، حتى لا يميز هذا عن ذلك، فتراه يلبس الباطل بالحق، ويوسوس في الصدور حتى يتشابه الحق بالباطل، ولكن إذا عرف الإنسان أن في قلبه شيطاناً يسعى لإغوائه، واتخذ عدواً تميز العقل عن الهوى في نفسه، وأمکنه معرفة طبيعة دواعيه النفسية هل هي من عقله أو من هواه.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال:

(١) سورة فاطر، الآية ٥.

«مَا خَيْرَ عَمَارٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَشَدَّهُمَا»^(١) لأن الأقرب إلى النفس أقرب إلى الشيطان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ﴿عَلِمًا أَنَّهُ يَأْتِي بِعُضِّ الْأَحْيَانِ فِي صُورَةِ النَّاصِحِ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مَبِينٌ، يَأْتِي لَكَ مِنْ تَسْعَةٍ وَتَسْعِينَ بَابًا مِنَ الْخَيْرِ كَيْ يُوَقِعَكَ فِي الْبَابِ الْمُنْتَهَى. إِنَّهُ عَدُوٌّ وَقَدْ آلَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَضِلَّ بَنِي آدَمَ، وَيَدْخُلَهُمْ مَعَهُ النَّارَ.

هكذا تناصح الصالحون بالأبغض عن آدم عن عدوه الخضر وهو الشيطان، فهذا الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حين يأتي إليه رجل ويقول له: بأبي أنت وأمي عطني موعظة يقول له: «إِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ عَدُوًّا فَالْغَفْلَةُ لِمَاذَا»^(٢).

وجاء في حديث أن الله أوحى إلى كلمه موسى بن عمران عليه السلام، وكان من بين وصاياه:

«مَا دُمْتَ لَا تَرَى الشَّيْطَانَ مَبِينًا فَلَا تَأْمَنُ مَكْرَهُ»^(٣).

وخطورة هذا العدو اللدود أنه لا يرضيه شيء إلا إذا أوقع فريسته في نار السعير مباشرة؛ ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ ﴿مَنْ يَطِيعُونَهُ..﴾ ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٦﴾.

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣٢٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٩٣.

(٣) الخصال، ج ١، ص ٢١٧.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وعذاب الدنيا مهما كان لا يبلغ شدة عذاب الآخرة، فعلى العاقل أن يتحمل صعوبات الدنيا لكي يتجنب عذاب الآخرة، كمن يهرب من النار عبر طريق شائك يدمي رجله، بلى؛ أن ينجو من النار على حساب رجله أفضل من أن يلتهمه سعيها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧) لماذا يؤكد القرآن على المغفرة للذين آمنوا وعملوا الصالحات؟

ربما لأن المغفرة للمذنب، وأبناء آدم - عادة - يذنبون فإذا عرفوا غفران الله عظم الأمل في قلوبهم حيث يقول لهم الرب: ما دمتم تعملون الصالحات فسوف يغفر لكم ذنوبكم.

وما دامت الفدية لا تؤخذ ذلك اليوم فلنقدمها الآن، ونكون من المتقين الذين صيح بهم فانتبهوا وعلّموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، و: «صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُّرَبِّحَةٌ يَسِّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ، أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُواهَا، وَأَسْرَتْهُمْ فَفَدَّوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا»^(١) في حين أراد المنافقون الدنيا، وبقوا في أسرها حتى الأخير.

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٣.

ثم يؤكد القرآن على أن الشيطان يزين الأعمال السيئة للإنسان حتى يراها صالحة.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يزينه له الشيطان، فيراه حسناً، ذلك أن الإنسان يحب نفسه ولا يحب أن يقال عن عمله أنه سيئ، وهكذا تنكسر الخطايا عنده، إذ تنقلب مقاييسه وقيمه فبعد أن كان يتحاشاها أضحى اليوم يراها حسنة .

وهكذا يصعب على هذا الرجل الإقلاع عن الذنوب فيضله الله.

يقول الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ:

«بَيْنَمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جَالِسًا إِذْ أَقْبَلَ إِبْلِيسُ وَعَلَيْهِ بُرْنُسٌ ذُو الْوَانِ، فَلَمَّا دَنَا مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَعَ الْبُرْنُسَ وَقَامَ إِلَى مُوسَى فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا إِبْلِيسُ، قَالَ: أَنْتَ فَلَا قَرَبَ اللَّهُ دَارَكَ، قَالَ: إِنِّي إِنَّمَا جِئْتُ لِأُسَلِّمَ عَلَيْكَ لِمَكَانِكَ مِنْ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَمَا هَذَا الْبُرْنُسُ، قَالَ: بِهِ أُحْتَطَفُ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَأَخْبِرْنِي بِالذَّنْبِ الَّذِي إِذَا أَذْبَتَهُ ابْنُ آدَمَ اسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِ، قَالَ: إِذَا أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، وَاسْتَكْتَرَتْ عَمَلَهُ، وَصَغُرَ فِي عَيْنِهِ ذَنْبُهُ»^(١).

(١) الكافي، ج٢، ص٣١٤.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فالله يضل هذا الإنسان الذي يبرر أعماله الفاسدة، فيسلب عقله، ويتركه في ظلمات لا يبصر، وقال ربنا تعالى ويهدي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما صبروا وأطاعوا ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ حين لا يؤمنون بك، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(١).

(١) سورة فاطر، الآيات ٦-٨.

١٤

إبليس موكل بالنفس الأمارة بالسوء

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، السجود هنا رمز الخضوع، كما كانت الملائكة موكلة بالقوى الطبيعية في الحياة، وأمر الطبيعة أن تسخر للإنسان فاستجابت كلّها، ولكن بعضها لم يستجب، فما هو ذلك البعض يقول الله سبحانه: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

إن لكل جانب من قوى الطبيعة ملكاً موكلاً به، والملائكة كلّهم سجدوا لآدم، ومن خلاهم سخرت قوى الطبيعة كلّها للإنسان بالعلم، ولكن هنالك ما وكل بقوة طبيعية لم يسجد للإنسان، وعلى الإنسان أن يخضعه وليضمن سجوده فمن هو؟ وماذا يمثل من الطبيعة؟

إنّه إبليس، الذي يثير الطبيعة البشرية (النفس الأمارة

(١) سورة البقرة، الآية ٣٤

بالسوء) فإذا أخضع الإنسان طبيعته ، وجعلها تسجد لله سبحانه آتئذ استطاع أن يسخر الحياة كلّها. بيد أنّ أكثر الناس يغفلون عن هذه الحقيقة فتصرّعهم طبيعتهم ويستحوذ الشيطان عليهم.

١٥

هكذا كان سلطان إبليس على الذين يتولّونه

الشیطان الثقافی أخطر على الإنسان من زملائه شیاطین الشروة والإرهاب والزينة!

ذلك لأنّ قدرة الإنسان على التمييز بين الحقّ والباطل ليست عالية، وذلك لسبب بسيط أنّ القلب البشري يتعرض لعواصف الشهوات، فيخبو ضوء العقل، ولولا تدخل قوّة غيبية هي قوّة الإيمان والتوكّل، فإنّ رياح الشهوة تكاد تطفئ مشعل العقل.

من هنا كانت الشبهات خطيرة، ومن هنا أيضاً لم يتخلص حتى المؤمنون من وساوس الشيطان، فغفر الله لهذه الأمة المرحومة ما يوسوس به الشيطان إذا لم يعتقد به المؤمن.

حكمة تبديل الأحكام حسب المتغيرات

ومن الشبهات ما أثاره الشياطين حول تبدّل الأحكام الشرعية وفق متغيرات الظروف فقالوا: إذا كان الرسول

صادقاً إذ أَلَمْ يَأْتِ كُلَّ يَوْمٍ بِقَانُونٍ جَدِيدٍ وَمُخَالَفٍ لِلْقَانُونِ
السابق؟ بل قالوا: إذا كانت رسالات السماء صادقة إذاً لماذا
اختلفت شرائعها؟!

ولكن الله أعلم بما ينزل، وهم جاهلون ولا يعلمون أن
الحياة تتغير، وكلّ قانون يناسب وضعاً معيناً، فإذا نزل فيه
كان حكيماً، وإذا تخطاه كان سفهاً.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
يُنزِّلُ﴾ فهو عالم بحكم النسخ والتغيير، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وإذا ترسخت هذه الشبهة في قلب فليس من السهل إزالتها،
لذلك كان علينا الاستعانة بالله أبداً حين قراءة القرآن، بل حين
دراسة أية قضية علمية حتى لا يختلط الحقّ والباطل في أذهاننا.

كذلك يثبت الله الذين آمنوا

إنّ الذين يكذبون ويبدّلون آراءهم كلّ يوم، بل بين ساعة
وأخرى، إنّما يتبعون أهواءهم، بينما الكتاب نزله الله بسبب
روح القدس المعصومة عن الزلل، والمقدسة عن الأهواء،
وحكمة هذه الروح التي ترافق الرسول أن تثبت المؤمنين
وتعصمهم من غواية الشيطان ومن شبهاته.

(١) سورة النحل، الآية ١٠١.

قال تعالى: ﴿فُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾^(١) فالحقّ المتمثل في سنن الله، في الآفاق والأفان، هو باطن آيات الله، كلّ آية مظهر لسنة إلهية راسخة في ضمير الخلق، والسنن ليست واحدة وكذلك الآيات، والاختلاف بين الخلق موجود، ودليل على وحدة خالقهم، كذلك الاختلاف في آيات الله الكاشفة لتلك السنن موجود، وكاشف عن علم الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالذين آمنوا يعتصمون بروح القدس، ويظلمهم روح القدس بقبس من نوره، قال تعالى: ﴿وَهُدَىٰ وَيُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٢) فمن أسلم وجهه لله، هداه الله بالقرآن وبشره بحياة طيبة، وإذا تكامل فإنّه سوف يصبح مؤمناً، والمؤمن يملك قوّة إلهية تحفظه من كيد الشيطان، ومن شبهاته وهذا يسمى بالعدالة، ويقولون خطأً: (إنّها ملكة في النفس)!

من شبهات الشيطان

وشبهة أخرى يطرّحها الشيطان كما ذكرها القرآن في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ يلحدون: أي يميلون، فقد قالوا: إنّ رجلاً اسمه (أبو فكيهة مولى بني الحضرمي) كان أعجمي

(١) سورة النحل، الآية ١٠٢.

اللسان، وكان قد اتبع نبي الله وآمن به، وكان من أهل الكتاب، قالوا إنه يعلم الرسول!

وبعض التفاسير تقول: إنه غير هذا الرجل، ولكنه على أي فرض كان أعجمي اللسان، والقرآن نزل بلغة عربية واضحة تعرب عن الحقيقة، قال تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(١).

الرد على الشبهة

إن الترجمة طابعها مهما كانت بلاغة المترجم، لأن كل لغة تعبر عن ثقافة خاصة صيغت تلك اللغة على مقاسها، واللغة العربية لم تكن قادرة على التعبير بدقة عن الأفكار الدخيلة، ولم تكن واضحة بذلك الوضوح المتناهي في البلاغة والنفاز إلى القلب، لولا أن ملقيها قد تعمق في فهم المحتوى، واهتدى إلى الموضوع الذي يعبر عنه، ووضح أن التعبير المفصل لا يكون من دون فهم عميق للفكرة، فكيف يعبر الرسول عن كل تلك الأفكار المفصلة والدقيقة إذا كان مجرد مترجم؟!

ثم إن القلب الذي لا يؤمن بالله لا يقدر أن يعبر عن الله، وأن ينطق باسم الله بهذا الوضوح والصراحة والقدرة، ذلك لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢).

(١) سورة النحل، الآية ١٠٣.

(٢) سورة النحل، الآية ١٠٤.

١٦

عاقبة اتباع الشيطان

كم تكون حسرة الإنسان إذا صار في الدنيا غرضاً للفتن، وفريسة للأماني وهمزات الشيطان، وعاش بينهما متربصاً مرتاباً حتى يجيء أجله، وتضيع الفرصة قبل أن يُجَلِّص نفسه من النار، ليصير إلى بئس المصير!

إنَّه يِخْلُ بِالْمَالِ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُ يَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ لَهُ مِثْلَ
الأَرْضِ ذَهَباً وَفِضَّةً يَفْتَدِي بِهِ نَفْسَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَلَوْ أَنَّ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ
سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا
يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١)، نعم هناك تبدد ظنونهم وأمانيتهم
التي لا تغني من الحق شيئاً. وهب أثمهم كان لهم ما في الأرض
ومثلهم وأرادوا فداء أنفسهم فإنه لا يقبل منهم، ويأتيهم
النداء بأن الدنيا هي دار العمل ولم تعملوا.

(١) سورة الزمر، الآيات ٤٧-٤٨

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ في مقابل الجنة التي يفوز بها المؤمنون
والمؤمنات.

ومفارقة أخرى أنّ ولي المؤمنين هو الله والأنياء والأولياء
والصالحون الذين يتقدمون بهم إلى الجنة نوراً يسعى بين
أيديهم.

أمّا المنافقون فلا يجدون ولياً ولا نصيراً ولا مأوى إلا النار،
وحيث يبحثون عن أوليائهم الذين اتبعوهم في الدنيا من
الظلمة والشياطين فيأتيهم الجواب: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ إثمهم
رفضوا دعوة الله ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، إذ نافقوا بدل الإيمان،
واتبعوا القيادات الضالة بدل الطاعة للرسول، وحيث يقال
إن النار هي مولاكم يعلمون عين اليقين أنّهم إذا تولوا الظالمين
إنّما تولوا النار ﴿وَيَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

وهذا المقطع يقابل قوله تعالى عن المؤمنين: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾^(٢)، وأي مصير أسوأ من ظلمات القيامة، وعذاب
النار، وسخط الرب؟! وهذا الأخير أشدّ عذاباً من كلّ شيء إنَّ
الإنسان يصير غرضاً لغضب الله، وبعيداً عنه، وفي الدعاء:

(١) سورة الحديد، الآية ١٥.

(٢) سورة الحديد، الآية ١٢.

«فَهَبْنِي يَا إِلَهِي وَسَيِّدِي وَمَوْلَايَ وَرَبِّي صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ
فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ، وَهَبْنِي صَبَرْتُ عَلَى حَرِّ نَارِكَ فَكَيْفَ
أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى كَرَامَتِكَ، أَمْ كَيْفَ أَسْكُنُ فِي النَّارِ وَرَجَائِي
عَفْوُكَ، فَبِعِزَّتِكَ يَا سَيِّدِي وَمَوْلَايَ أُقْسِمُ صَادِقًا لَنْ تَرَكْتَنِي نَاطِقًا
لَأَضْحَجَنَّ إِلَيْكَ بَيْنَ أَهْلِهَا ضَجِيجَ الْأَمَلِينَ، وَلَا أَصْرُخَنَّ إِلَيْكَ صُرَاخَ
الْمُسْتَصْرِخِينَ، وَلَا أَبْكِيَنَّ عَلَيْكَ بُكَاءَ الْفَاقِدِينَ، وَلَا نَادِيَنَّكَ أَيْنَ
كُنْتَ يَا وَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ»^(١).

(١) البلد الأمين، ص ١٩٠: دعاء كميل للإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.



الفصل السادس:

كيف نتحدّى الشيطان؟



خلاصة الفصل السادس

حينما يكون اختيار الصديق ضمن المعايير الإلهية تبقى العلاقة به متينة وغير متزلزلة، بعكس الاختيار القائم على المصلحة فإنه عند تبدل الأحوال وتغير الظروف تنهار هذه الصداقة!

يتلون الشيطان ويأتي لحرف الإنسان عبر صور مختلفة؛ فمنها ما هو ظاهر كالمجتمع وما فيه من ضغوط أو من خلال السلطة الحاكمة، ومنها ما هو خفي كالصديق الذي يدغدغ في الإنسان الآمال والشهوات.

من وسائل التبرير التي يلجأ إليها كل من يريد الهروب من المسؤولية هي التنصل من الفعل ورميه وإلقائه على الغير.

على الإنسان أن يتحدى الظلام المحيط بنفسه عن طريق

إثارة عقله، ويتحدى ضعفه ويأسه وخوفه بالتوكل على الله. إن أقوى الحجب التي تمنع النور عن قلب البشر هو: الخوف من الحقيقة، والجبن عن مواجهة القوى الفاسدة والباطلة التي ترفض الحقيقة.

الاستعاذة بالله، والطلب المباشر منه لكي يحفظ الإنسان من خطر القوى التي ترفض الحق، إنه العلاج المباشر لمشكلة الخوف من الحقيقة، ومقاومة سلطان الشيطان على القلب.

لأن الطبيعة ترفض الفراغ، والقلب البشري ينقاد إما لسلطة الله أو لتسلط الطاغوت، فإذا رفضنا ولاية الله استعبدنا الشيطان، ولا حياد بين الحق والباطل، كما لا مسافة بين الكفر بالله ورفض حاكميته على الإنسان، وبين الإيمان بالطاغوت والخضوع لتسلطه واستغلاله.

الاستعاذة بالله لا تعني مجرد التوجه القلبي إلى الله، بل تعني تطبيق مناهج السوء في الوحدة والصبر، والاستقامة والسعي، والقيادة الرشيدة.

هناك مفهوم خاطئ للشفاعة يتخذه البعض غطاءً لذنوبه، وهي الشفاعة المرفوضة التي يزعم صاحبها أن أصنام السلطة والثروة وجنودهما قادرين على إنقاذه من غضب الرب لأنهم

حسب زعمهم يشاركون الله في سلطانه تعالى عما يشركون. وعبادة الشيطان لا تعني السجود له، إنّما طاعته بوعي، والتسليم التام لإغوائه، وتتجسد عبادة الشيطان في طاعة أوليائه من سلاطين الجور، وطغاة السلطة والثروة.

مقتضى وجود العقل عند البشر هو أن يستفيد منه في تحديد طريق النجاة، وتجنب سبل الهلاك.

إنّ عبادة الله سبحانه وتعالى، والاتصال به عصمة للإنسان لئلا يقع في حبال الشيطان.

من الطبيعي جداً أنّ إرادة الشيطان لا تستطيع أن تقف أمام مشيئة الله، لأنّ وعد الله هو الحقّ وإن يعد الشيطان إلاّ غروراً.

١

في العلاقات البشرية بون شاسع بين محور القيم والمادة

إنَّ للعلاقة الاجتماعية -بالذات تلك التي تركز عليها
البنى التحتية للمجتمع - قاعدة، فقد تكون الأرض قاعدة
التجمع فتنشأ الصلة الوطنية والإقليمية، وقد تكون اللغة
هي القاعدة فتنمو الحالة القومية، وقد تكون المصالح العامة
التي تنمو وتتسع إلى الحالة الإمبريالية، وقد تتجلى في صورة
الأممية البروليتارية.

والصلة التي تربط في هذه الحالات جميعاً بين الإنسان
والإنسان هي صلة مادية ناشئة من التراب، بينما رسالات الله
تريد صلة أخرى هي صلة الروح، صلة الحبِّ الإلهي، صلة
القيم الربانية، وهذه الصلة قائمة على أساس ذكر الله.

وهي تستنزل رحمة الله، وتنمِّي قيم الفضيلة والخير
والإحسان، كما تحافظ على الحقِّ والعدل والحرية، بينما

الصلوات الأخرى تستدرج البشر إلى نقمة الله، وتطمس معالم الحق، ولا تنمي الخير، بل تساهم - عادة - في إشاعة الفحشاء، وبث روح الاعتداء والظلم.

فإذا بحثنا عميقاً في أسباب الشقاء والعداء وعوامل الصراع والحرب والاعتداء بين الناس، سواء داخل التجمع الواحد أو بين الأمم، فلن نجد لها سوى هذه الصلوات الجاهلية النابعة من حبّ الدنيا وزخرفها.

والقرآن يحذّرنا من الوقوع في هذه المهالك، ويأمرنا بالتمسك بالوحي، فمن عشا عنه فقد قرن به شيطان، يبعده عن السبيل، ويزين له السيئات.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿١﴾.

ويبدو أن باطن هذه الآيات التبصير بدور القرين في حياة الإنسان، والقرين قد يكون زوجة، أو زوجاً، أو صاحب السبيل، أو زميل الدراسة، أو شريك التجارة، أو الجليس

(١) سورة الزخرف، الآيات ٣٦-٣٩.

والأنيس، والإسلام يأمرنا بذكر الله حتى يكون معيار اتخاذ القرين ربانياً، لأنه حسب ما يكون الإنسان يختار أقرانه، وكما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «كُلُّ امْرِئٍ يَمِيلُ إِلَى مِثْلِهِ»^(١)، وقوله عليه السلام: «لَا يَصْحَبُ الْأَبْرَارَ إِلَّا نُظْرًاؤُهُمْ»^(٢)، وقوله عليه السلام: «لَا يُؤَادُ الْأَشْرَارَ إِلَّا أَشْبَاهُهُمْ»^(٣).

وحين يُتَّخَذُ القرين بمعيار إلهي تكون علاقته به متينة، بينما إذا كانت المصلحة أو الهوى أساساً للصدقة انهارت بتبدل الأحوال.

وحين يكون المعيار الإلهي حاكماً يصنع المؤمنون من تجمعهم جنّة أرضية حيث يوادون بعضهم في الله، ولا تجد في قلوبهم غلاً للذين آمنوا، ويأنس الواحد منهم إلى صاحبه كما الظمان إلى شراب سائغ، وهنالك تتجلى السعادة الدنيوية، كما لا تتجلى في أي نعمة أخرى.

وتمتد هذه الخلة حتى يوم القيامة حيث يقول ربنا: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، وحتى تبلغ بهم الجنة حيث تراهم ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٥).

(١) غرر الحكم، الحكمة رقم ٩٧٢١.

(٢) غرر الحكم، الحكمة رقم ٩٧٢٤.

(٣) غرر الحكم، الحكمة رقم ٩٧٢٣.

(٤) سورة الزخرف، الآية ٦٧.

(٥) سورة الحجر، الآية ٤٧.

٢

من هم شياطين الإنس؟ وما هي النجاة من شرهم؟

الناس في الدنيا محكومون بالضغوط الاجتماعية التي تدعو الكثير منهم إلى ترك الرسالة الإلهية.

إنّ الشيطان يدعو الإنسان إلى الانحراف، ويعدّه بالنصر، ثمّ يكون أول المتبرئين منه، حينما يواجه مصيره وعاقبة أمره، ولكن من هو الشيطان؟

إنّ للشيطان صورتين:

- فتارة يتجسد في القوى الخفية التي تضلنا عن الحقّ.
- وأخرى في القوى الظاهرة و بصورة مختلفة، فقد يكون صديقاً يدغدغ فينا الآمال والشهوات، وقد يكون المجتمع الذي يضغط باتجاه التقاليد والعادات المنحرفة، وربّما يكون السلطان الحاكم، أو الإعلام المضلل، و.. إلخ، وهؤلاء جميعاً يتبرؤون من البشر يوم القيامة.

ومن أبرز ما يستفيد العاقل من مصير الغابرين كيفية
إضلال الشيطان لهم، ذلك أنّ الشيطان ليس خلقاً غريباً
يقتحم عليك بيتك حتى تتحذر منه، كلا، إنّهُ في عروقك، في
أعماق فؤادك، في أقرب الأصدقاء إليك، في زوجك وأخيك،
في تربية أمك وأبيك، في كلمات معلمك، وحتى في توجيهات
من نصب نفسه عالم دين.

وأولئك الذين هلكوا جاءهم الشيطان من بين أيديهم ومن
خلفهم وعن أيّانهم وشمائلهم، وشبه لهم، وزين لهم، وبرر
لهم بوسائل شتى.

فإذا أردنا أن نمنعه فلا بدّ أن نكون في أقصى الحذر والعقل.

٣

لنعرف وساوس إبليس حتى نتجنبها

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٧﴾﴾ إِنَّ سَجُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلَةِ بِالطَّبِيعَةِ لِلإِنْسَانِ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَهَا لِلبَشَرِ، بَلَى يَبْقَى إِبْلِيسُ مُوَكَّلًا بِالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ الَّتِي لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ إِلَّا أَنْ يُجْبِرَهَا الإِنْسَانُ عَلَى ذَلِكَ.

قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١٧﴾﴾^(١) بَيْنَ اللَّهِ لِآدَمَ وَزَوْجِهِ، أَنَّ إِبْلِيسَ عَدُوٌّ لَهُمَا، يَسْعَى لِإِخْرَاجِهِمَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَنَسْتَفِيدُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ عِدَّةَ أَفْكَارٍ:

- إِنَّ الإِنْسَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ وَيَتَذَكَّرَ ذَلِكَ أَوَّلًا.
- إِنَّ عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِلْمَرْأَةِ كَعِدَاوَتِهِ لِلرَّجُلِ، وَبِالتَّالِيِ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَكُونَ عَلَى أَشَدِّ الْحَذَرِ كَمَا عَلَى الرَّجُلِ سِوَاءَ بَسْوَءٍ.

(١) سورة طه، الآيات ١١٦-١١٧.

• إن هدف الشيطان هو إضلال البشر وجرهم إلى الشقاء المادي والمعنوي، ووسيلته في ذلك التغيرير والمكر والخداع!

قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ هذه أربع من النعم المادية التي أودعها الله في الجنة وهي: نعمة الأكل واللباس والشراب والمسكن.

ولكن هل يترك الشيطان الإنسان لسبيله؟

كلا؛ وقد ذكر الله في القرآن على لسانه: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾^(١) نستوحي من هذه الآية الكريمة أفكاراً عديدة تعالج قضايا هامة، لازل بعضها موضع بحث ودراسة عند المفسرين:

كيف يستثير إبليس غرائز البشر؟

• إن الشيطان يوسوس للإنسان، فيستثير طبائعه الدفينة، ويدغدغ تمنياته المكبوتة، ويحرك تلك الغرائز الخاملة، وهو يفعل كل ذلك بهدف التشويش على بصره، والتمويه عليه، وزرع الشبهات في قلبه، وإلقاء التبريرات في نفسه.

(١) سورة طه، الآيات ١١٨-١٢٠.

وهكذا لا يكفي الحذر من إغواء الشيطان المباشر، بل علينا أن نعرف أنه يشوش علينا، ويشبه الأمور ويخلط الحق بالباطل، ويمكر ويكيد، ويغر ويخدع، لذا ينبغي أن نكون في قمة الحذر، وإلا وقعنا في شركه.

- وآدم عليه السلام أول من حاول إبليس إغواءه، ولكنه لم يعزم عصيان ربه، بل أنساه الشيطان أمر الرب، وخدعه حيث حلف له بالله كذباً أن الله لم ينهه عن تلك الشجرة.

ولم يكن آدم عليه السلام يعلم أن من الممكن أن يحلف أحد بربه كاذباً، ثم شبه عليه بأن المنهي عنه إنما هو شجرة معينة من الحنطة، وليس كل أشجار الحنطة، وهنا استفاد إبليس من نقطة ضعيفة عند البشر حيث يتهرب من المسؤولية بأدنى تبرير، وكانت أداة وسوسته إثارة مشاعر حب الخلود والملك عند البشر، جاء في حديث شريف عن جميل بن دراج عن أحد الصادقين عليه السلام قال: سألته: كيف أخذ الله آدم بالنسيان؟ فقال عليه السلام: «إِنَّهُ لَمْ يَنْسَ وَكَيْفَ يَنْسَى وَهُوَ يَذْكُرُهُ وَيَقُولُ لَهُ إِبْلِيسُ: مَا نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ

الشَّجَرَةُ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ» (١).

• غريزتا الملك وحبّ الخلود غريزتان متأصلتان في أعماق الإنسان، فبالرغم من أنّ الله أسكن آدم وحواء الجنّة -وهي دار الخلود- إلا أنه لازال ينتابهما الشعور بالنهاية، وقد أثار الشيطان فيهما هاتين الغريزتين، وهكذا كانت نتيجة غواية إبليس أن أكل آدم من الشجرة فطرد من الجنّة.

وإنّما كان ذلك من آدم حين أثار إبليس فيه غريزتي حبّ الملك وحب الخلود، ومن المعلوم أنّه لم يكن الهدف من خلق هاتين الغريزتين في النفس أن يستخدمهما الشيطان في إغواء الإنسان، إنّما أعطاه الله حبّ الملك والسيطرة، لكي يستعمر الأرض ويتحمل الصعاب والمشاق في سبيل ذلك، وأعطاه حب الخلود لكي يحافظ على نفسه من جهة، ولكي يعرف أنّه خلق للبقاء، ولكن ليس في هذه الدنيا، بل في الآخرة، وأنّه لو لم يخلد في الدنيا، فإنّ هناك داراً أخرى سيخلد فيها.

ولكن إبليس كعادته يحرف غرائز الإنسان، التي لو استفاد منها استفادة سليمة، إذن لكانت وقوده

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٨٧- تفسير العياشي، ج ٢، ص ٩.

في الطريق الصاعد، أمّالو استخدمها بصورة غير سليمة، فإنّها ستكون سبباً لهبوطه وترديّه. والشيطان حينما يوسوس للبشر فهو قد لا يتراءى له، ولكنّه يأتيه في صورة خواطر وأوهام.

٤

بالله نستعيد من الشيطان الرجيم

تدل الآيات القرآنية في سورة النحل على أنّ الكتاب من الله، بيد أنّ الكتاب لا يفهمه إلا من تخلص من سلطان الشيطان، ولا يتخلص منه إلا المتوكلون الذين يستعيذون بالله من شره، أمّا الذين يقولونه ويجعلونه شريكاً في أمورهم بطاعته، فإنّ الشيطان يتسلط عليهم ولا يدعهم يبصرون نور القرآن.

وقد ينسخ الله آية بآية لعلمه بحكمة خلقه بالمصالح العامة لهم والتي تتغير وفق الظروف، فأنثى يجد المشركون فرصتهم في اتهام الرسول بأنّه مفتر، لجهل أكثرهم بحكم الآيات.

كلا، إنّ القرآن كتاب الله الذي أنزله روح القدس بالحق من الله، ليكون تثبيتاً لإيمان المؤمنين، وهدى لهم، وبشرى إلى حياة أفضل.

ويقولون: إنّ الرسول يتعلم من بعض النصارى المبادرين بالإسلام، دون أن يعرفوا الفرق بين لسان النبيّ ولسانهم،

فبينما ذلك اللسان أعجمي نرى القرآن يحدثنا بلسان عربي مبين، وليس الجدل في القرآن إلا بسبب جحودهم به، ولا يهدي الله قلباً جاحداً، بل يذيقه عذاباً أليماً.

وكيف يفترى الكذب شخص مخلص لربه، محسن إلى الناس كمحمد ﷺ والذي يعرف أن الكذب أبعد خصلة عن المؤمن؟! ولا يفترى الكذب إلا الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون حقاً.

٥

لماذا نستعين بالله عند قراءة القرآن؟

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ١٠٥﴾^(١).

القلب البشري يلفه الظلام الآتي من طبيعة الضعف والجهل فيه، ومن تأثير جاذبية الطبيعة، وبالرغم من أن هذه النفس قد

(١) سورة النحل، الآيات ٩٨-١٠٥.

أوتيت قسماً من نور الحقيقة هو الذي نسميه بالعقل والإرادة، إلا أنّ على الإنسان أن يتحدى الظلام المحيط بنفسه عن طريق إثارة عقله، ويتحدى ضعفه ويأسه وخوفه بالتوكّل على الله.

إنّ أقوى الحجب التي تمنع النور عن قلب البشر هو: الخوف من الحقيقة، والجبن عن مواجهة القوى الفاسدة والباطلة التي ترفض الحقيقة.

الاستعاذة بالله، والطلب المباشر منه لكي يحفظ الإنسان من خطر القوى التي ترفض الحقّ، إنّهُ العلاج المباشر لمشكلة الخوف من الحقيقة، ومقاومة سلطان الشيطان على القلب.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ لكي نبلغ قمة الحقيقة المتمثلة بالقرآن لا بدّ أن نتجاوز جاذبية الأرض، والقوّة التي بها نقاوم هذه الجاذبية المتجسدة في الشهوات هي قوّة التوكّل على الله، والاستعاذة نوع من التوكّل، وتفترق عنه في أن الاستعاذة طلب ملح من الله بإنقاذ الإنسان من شر محقق، وأي شر أخطر من شر العقيدة الباطلة، أو من شر الجهل بالحقيقة الذي تخلقه وساوس الشيطان في القلب؟!!

وفي طول فترة تلاوة القرآن لا بدّ أن يستعين البشر برّبّه.

٦

التوكّل حصن المؤمن من وساوس الشيطان

الشيطان ينفذ إلى قلب الشخص، ويتجسد في شكل القوى السياسية والاجتماعية المحيطة به، ولكن المؤمن الذي يتوكّل على الله يحفظه الله من هذا الشيطان الذي يجري فيه مجرى الدم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ بينما الذي لا يؤمن بالله يتسلط عليه الشيطان، فيضله عن الحقيقة لضعف إرادته.

الذي يتخذ الشيطان ولياً وقائداً مطاعاً، فيشرك بالله ويتخذ من الشيطان شريكاً مزموماً لله، ويعبد الله حيناً ويعبد ويطيع الشيطان حيناً آخر، إنّه يقع فريسة للشيطان الذي لا يستطيع أن يتخلص من شره إلا بالاستعاذة بالله.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٣﴾^(١) يبدو أنّ هناك فريقين يتسلط عليهما الشيطان،

(١) سورة النحل، الآيات ٩٩-١٠٠.

إنسيًّا كان شيطانها أو جنياً، ظاهراً كالطغاة والمستكبرين، أو باطناً كالعقائد الفاسدة والعقد النفسية:

• **الفريق الأول:** الذين يتخذون الشيطان ولياً، ويخلصون الانتفاء إليه كممثل أئمة الكفر، والملا من حول الفراغنة، والبطانة من حول الطغاة.

• **الفريق الثاني:** الذين يطيعون الشيطان خوفاً وطمعاً.

وسواء هذا الفريق أو ذاك فإنهم جميعاً يصبحون عبيد الشيطان، ويفقدون حريتهم واستقلالهم وثرواتهم التي يصادها الشيطان.

القوى الاستكبارية في الأرض، لم تفوض بالسيطرة على الناس من قبل الله الحكيم سبحانه، إنما نحن الذين خضعنا لأفكارهم، فأخضعتنا لمصالحهم، أو خضعنا للثروة والقوة رهباً ورغياً، فامتلكت دوننا ناصية الثروة والقوة، واستعبدتنا صاغرين.

والآن كيف نتخلص؟

لابدّ أولاً من التحرر من الأفكار الاستكبارية القاضية بالتبعية المطلقة للمال والرجال، ثم العودة إلى الله، والاستعاذة به من شر الشيطان، ذلك لأن الطبيعة ترفض الفراغ، والقلب

البشري ينفاد إمّا لسلطة الله أو لتسلط الطاغوت، فإذا رفضنا ولاية الله استعبدنا الشيطان، ولا حياد بين الحقّ والباطل، كما لا مسافة بين الكفر بالله ورفض حاكميته على الإنسان، وبين الإيمان بالطاغوت والخضوع لتسلطه واستغلاله.

والسياق القرآني يشير إلى هذه المعادلة، إذ يأمرنا ربنا بالاستعاذة بالله والتوكّل عليه، ثمّ يبيّن أنّ الشيطان عاجز عن التسلط على المتوكّلين بالله.

ونتساءل معاً: هل تعني الاستعاذة مجرد التوجه القلبي إلى الله؟ أم أنّ تطبيق مناهج السماء في الوحدة والصبر، والاستقامة والسعي، والقيادة الرشيدة؟ كلّ أولئك بعض معاني الاستعاذة بالله، وبالتالي طرق مقاومة العبودية للشيطان الإنسي والجني.

٧

لكي نتحدى الشياطين

نستعيد من نزغاتهم بالله السميع العليم

لأن الاستقامة، وردّ الإساءة بالإحسان، والصبر، صعب مستصعب، فإنّ الإنسان الذي خلق من ضعف قد يسقط تحت الضغوط، فلا ينبغي اليأس والاسترسال في الهبوط، بل لابدّ من تجديد العزم، وتجاوز حالة الضعف، والاعتصام بحبل الله، والاستعاذة به.

﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ أي دفعك الشيطان دفعاً إلى الانحراف في حالة من حالات الضعف الذي يعتري البشر عادة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ذلك أنّ ضعف البشر لا يجبره سوى قوّة الربّ، فحين تذكر ربّك، وتتجه إليه بقلبك، يصلك المدد من الملائكة الذين يثبت الله بهم أقدام المؤمنين عند مظنة الزلزل.

إنّ الشيطان الغوي يجند لمحاربتك جنوده، ويوسوس إليك

بأمانيه وغروره، والريب واليأس، ولكن إذا أقبلت إلى ربك، وذكرته في شرك، هرب إبليس وجنوده، وخرجت منتصراً.

كلمة أخيرة: إن سياق الآيات يهدي إلى أنها تعالج وضع الدعاة في أشد الظروف، حيث يحتاجون إلى الاستقامة، ورد الإساءة بالإحسان والصبر، ولا ريب أن الدرع الحصين لهم هو التقية، وهي بحاجة إلى أناة وحكمة، وصبر عظيم.

وإن كثيراً من الحركات الرسالية لم يحالفها النجاح ضد الطغاة بسبب فقدان بند أو أكثر من هذا البرنامج في حياتهم، وذهبت تضحياتهم الكبيرة سدى، فعلينا ألا نستهن ولا بواحدة من هذه الوصايا، بل نتمسك بها جميعاً وبقوة حتى يأذن الله لنا بالنصر.

٨

لا نجاة من النار من دون إذن الرب

والتبرير الآخر الذي يعالجه الذكر الكريم، هو (الشفاعة) والاعتقاد بوجود قوى ربّما تنقذ الإنسان من نار جهنم حتى بعد استحقاقها كالأصنام والملائكة، وقد أقحمت هذه الأفكار في المسيحية تحت عنوان (الفداء)، إذ كانوا في القرون الوسطى - وربّما إلى اليوم- يذهب بعضهم للكنائس من أجل الحصول على صك الغفران.

ولا شك أنّ الاعتقاد بوجود منقذ غير الله يفرض على الله نجاة البشر صورةً أخرى للشرك.

قال الله سبحانه: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الشركاء، وخضعتهم لهم، وهم كما يبدو ثلاثة أصناف من الشركاء:

- **الأول:** أصحاب الثروة، الذين يظن الناس أنّهم يرزقونهم، وأنّهم لما يظهر لهم من ثروتهم وملكهم

يشاركون الله في ملكه للحياة، والقرآن ينفي ملكيتهم ولو بمقدار الذرة المتناهية في الصغر وقال ربنا تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

• **الثاني:** أصحاب السلطة، والزعم بأن شخصاً كالملك أو نظاماً كالجمهورية هو الذي يشارك الربّ تعالى في إدارة الخليقة، وتدير شؤون السماوات والأرض، وينفي السياق ذلك بقوة ويقول ربنا سبحانه وتعالى ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾.

• **الثالث:** وسائط القوة والثروة، من الجنود والخدم والوزراء، الذين يزعمون أنهم ينصرونهم والقرآن ينفي أن يكون للأنداد شرك حتى بهذا القدر وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾^(١).

(١) سورة سبأ، الآية ٢٢.

٩

بين الشفاعة الشركية والشفاعة المسؤولة

حقيقة الشفاعة ما هي؟

من الوسائل الماكرة للشيطان الرجيم تبرير أخطائه للإنسان عبر تشويه الحقائق؛ مثلاً تشويه حقيقة الشفاعة.

الشفاعة هي أن الإنسان يؤمن بالله ورسوله ويطيع الله ويستغفر لذنبه ويتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بالولاية الإلهية، لأن الولاية الإلهية هي بذاتها حسنة عظيمة.

لأن ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)، ويقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٢)، ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ

(١) سورة المائدة، الآية ٣٥.

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٣.

الرَّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١﴾.

هذه الشفاعة الصحيحة والتي نحتاجها جميعاً، لأنه مهما تكون أعمالنا صالحة وسلوكنا سلوكاً صحيحاً فإن هناك أخطاء وفواحش ظاهرة أو باطنة قد تمنعنا من الدخول إلى الجنة .

يعني إلا بهذا العمل العظيم وهو ولاية أولياء الله، الدعوة إلى الله بحقهم، ومن فضل طاعتهم حتى يغفر الله لنا، ويفتح لنا جنته ويمنحنا رضوانه.

أمّا الشيطان فيحاول أن يخدع الإنسان عن هذا المفهوم الصحيح، ويسهل عليه أو يحاول أن يجعل أخطائه سهلة ويزين له عمله ويمنيه بالشفاعة.

فيقول عليه اللعنة: إن الشفاعة مفروضة على الله سبحانه وتعالى وكان هناك نوع من تقاسم السلطة بين الله وبين الصالحين من عباده أو الرسول والمقربين. هذه الشفاعة غير مقبولة وغير صحيحة. ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢).

(١) سورة النساء، الآية ٦٤.

(٢) سورة المنافقون، الآية ٦.

لا شفاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى

كانت الأصنام تعبد طمعاً في شفاعتها، إذ كانوا يزعمون أنّ لها وجهة عند الله، ويفند القرآن هذا الاعتقاد فيقول: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾^(١)، ويعد مثل الشفاعَة مثل الدعاء، أو ليس الله سبحانه وتعالى يستجيب لأحد دعاءه في حقّ نفسه أو في حقّ الآخرين وقد لا يستجيب، ونستفيد هذه البصيرة من قوله سبحانه مخاطباً حبيبه محمّداً ﷺ بقول: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٢).

الشفاعة الحقّ

بلى؛ إنّ الله شفيح للإنسان، ويقبل الشفاعَة حينما يكون عند الفرد ما يؤهله لها، حيث يقول ربّنا سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾^(٣)، فمعنى الشفاعَة هنا بأن يُشعر الإنسان نفسه بالذنب، وبضرورة التوبة إلى الله سبحانه منه، ويقوم بما يستلزم ذلك من انكسار القلب، وعقد العزم على عدم العود إلى الذنب ثمّ يذهب إلى الرسول ويستغفر الله ويستغفر الرسول له.

(١) سورة سبأ، الآية ٢٣.

(٢) سورة التوبة، الآية ٨٠.

(٣) سورة النساء، الآية ٦٤.

وبكلمة: إنَّ هناك مفهوماً خاطئاً للشفاعة يتخذه البعض غطاءً لذنوبه، وهي الشفاعة المرفوضة التي يزعم صاحبها أنَّ أصنام السلطة والثروة وجنودهما قادرون على إنقاذه من غضب الربِّ لأتَّهم حسب زعمهم يشاركون الله في سلطانه تعالى الله عما يشركون.

الشفاعة؛ التسليم للولاية بعد الاستغفار

وهناك شفاعة مسؤولة تبعث الإنسان نحو المزيد من المسؤولية والطاعة وهي التي بينها القرآن في أكثر من مناسبة، والتي تعني دعاء الرسول والأئمة والصالحين بالمغفرة لمن أذن الله له بذلك، وهم المسلمون المطيعون لله وللرسول والأئمة بصفة عامة.

ولعل مغزى الشفاعة في هذه الحالة تسليم الفرد لولاية الله المتمثلة في الرسول وأهل بيته (عليه وعليهم السلام).

وإنَّما تبعث هذه الفكرة نحو المزيد من العمل لأتَّها تقاوم اليأس، وتزيد من طاعة القيادة الإلهية، جاء في الحديث المأثور عن أبي العباس المكيِّ قال: دخل مولى لامرأة عليِّ بن الحسين عليه السلام على أبي جعفر عليه السلام يقال له أبو أيمن فقال: يا أبا جعفر تغرون النَّاس وتقولون شفاعة محمدٍ شفاعة محمدٍ.

فغضب أبو جعفر عليه السلام حتى ترَبَّدَ وجهه ^(١) ثم قال عليه السلام:
 «وَيْحَكَ يَا أَبَا أَيْمَنَ، أَغْرَكَ أَنْ عَفَّ بَطْنُكَ وَفَزُجَكَ، أَمَا لَوْ قَدْ
 رَأَيْتَ أَفْزَاعَ الْقِيَامَةِ لَقَدْ احْتَجَجْتَ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ عليه السلام، وَبِئْسَ
 فَهْلٌ يَشْفَعُ إِلَّا لِمَنْ وَجِبَتْ لَهُ النَّارُ».

ثم قال عليه السلام: «مَا أَحَدٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى
 شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ عليه السلام يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «إِنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ عليه السلام الشَّفَاعَةَ فِي
 أُمَّتِهِ، وَلَنَا شَفَاعَةً فِي شِيعَتِنَا، وَلِشِيعَتِنَا شَفَاعَةً فِي أَهَالِيهِمْ».

ثم قال عليه السلام: «وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ فِي مِثْلِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ، وَإِنَّ
 الْمُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ حَتَّى لِيَخَادِمِهِ، وَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَقَّ خِدْمَتِي كَانَ
 يَقِينِي الْحَرَّ وَالْبَرْدَ» ^(٢).

وهكذا تراهم حين تغشاهم أفزاع القيامة تطير ألبابهم، وتزيغ
 أبصارهم، ولا يعودون إلى رشدهم إلا بعد أن يفرغ الله قلوبهم
 من الفزع، وهنالك يتساءلون: ماذا قال الرب؟ ويجابون: لقد
 قال الحق، قال الله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ وكلمة
 ﴿حَتَّىٰ﴾ تدل على أن الفزع يستمر معهم إلى أن يفرجه الله عنهم،
 مما يدل على أن الشركاء لا يغنون عنهم شيئاً.

(١) تغيير لونه.

(٢) تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٠٢.

وكلمة ﴿فَنَزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ تشبه قول العرب (قَرَدَ البعير) إذا أخذ منه القراد، ويسمونه السلب، ومعناه سلب عنهم الفزع.

وقال ربنا سبحانه: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾^(١)، لعل السائل والمجيب هم نفس الفريق، فسأل البعض عن مصير الناس، وأجاب الآخرون، إذ هم من يكشف الفزع عن قلوبهم.

فالشفعاء هم: كما قال ربنا تعالى: ﴿..عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾^(٢) لا يَسْقُوتُهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾.

شفاعة الغرائيق لا ترتجى

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٦﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴿١٧﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿١٨﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿١٩﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٠﴾ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢١﴾ فَلِئَلَّهِ

(١) سورة سبأ، الآية ٢٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات ٢٦-٢٨.

الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿١﴾.

جاءت الآيات المباركة لتؤكد بأن شفاععة هذه الغرائق لا ترتجى، وما هذه القصة سوى أمنيات ألقاها الشيطان، وما هي إلا أسطورة مفضوحة.

فكيف للرسول أن ينزل إلى مستوى الجهل بأهم أصل من أصول رسالته، الذي يعتبر الركيزة الأولى التي قام عليها الدين بأكمله وهي التوحيد، بالإضافة إلى أن رسل الله معصومون عن الذنب، والخطأ والسهو كما النسيان، وبالذات هذه السورة رسول الله محمد خاتم النبيين ﷺ الذي يقول عنه الرب سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٣﴾﴾، إن هذه الآية نقرأها في سورة النجم بالذات التي نسجت حولها هذه الأسطورة فهل من الممكن أن تصور رسولاً يبعثه الله لإبلاغ رسالة التوحيد ثم ينسى هذه الحقيقة، ويبدلها بخرافة الشرك؟!!

إنَّ هذا الحديث إنما تقوَّله الجاهليون الحاقدون على الرسول ﷺ نكاية به، وتناقله الجاهلون الذين لم يعرفوا رسول الله بل لم يعرفوا رسالات الله.

(١) سورة النجم الآيات، ١٩-٢٥.

(٢) سورة النجم، الآيات ٣-٤.

ولو افترضنا -جدلاً- صحة هذه الرواية فلا بدّ أن يكون هذا الكلام من إلقاءات الشيطان في قلوب المشركين، التي أضافوها إلى الآيات، وأشاعوها بين الناس، ليشبهوا على الناس، إلا أنّ الله سبحانه -الذي وعد بحفظ القرآن من عبث العابثين وتحريف المبطلين- أحكم آياته، وفضح إلقاءات الشيطان، وقد ذكر كثير من المفسرين هذا الاحتمال في هذه الرواية الموضوعة.

١٠

أصناف الناس وأقسام قلوبهم

إن قلوب الناس على ثلاثة أنواع:

• السليم.

• المريض.

• القاسي.

والقلب السليم يعصمه الله مما يلقي الشيطان في أمانيته،
بينما القلب المريض والقاسي يتلقفان ما يلقيه الشيطان،
ويصبح بالنسبة إليهما فتنة تستهويهما ويصعب عليهما التخلص
منها، قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ﴾^(١) فما هو القلب المريض
والقاسي؟ لعل أمراض القلب هي تلك العقد النفسية، التي
تظهر في الصفات الرذيلة كالحسد والحقد والكبر واليأس،
وحب الرئاسة، والجدل في الله بغير حق.

(١) سورة الحج، الآية ٥٣.

وأما قسوة القلب فهي التي تنشأ بسبب تراكم آثار الذنوب عليه، فإذا به لا يستجيب للحق، ولا يهتز للإنذار والتبشير، ولا يعتبر بمصير المجرمين، ولا ينتفع بآيات الله في الآفاق.

١١

وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم

لقد أكد الله عهده مع بني آدم بألا يعبدوا الشيطان لأنه عدو مبين، وأن يخلصوا عبادتهم لله رب العالمين، ليكونوا على صراط الله المستقيم.

ودليل عداوة الشيطان أنه: أضل خلقاً كثيراً حتى ظهر انحرافهم وهلكوا وأمسوا عبرة لنا، ولكن الناس لم يكونوا يعقلون ذلك. ثم استحقوا -بعد العذاب في الدنيا- النار في الآخرة، وقيل لهم: ادخلوا جهنم، واصلوا بناها، وهناك لا يمكنهم الجدل، بل: يختم الله على أفواههم، ويستنطق أيديهم، ويشهد عليهم أرجلهم بأعمالهم.

وإنَّ نعمة الهداية من الله كما نعمة العين والأذن والإحساس، ولو شاء الله لأعمى أعينهم حتى يتبادروا إلى الصراط فلا يبصرونه، أو يمسخهم وهم في مكانهم حتى لا يقدرّون على التقدم أو العودة.

وشاهد آخر على أنّ الهدى من الله العقل الذي يسلبه الله
 ممن يعمر حتى يعود طفلاً، فمن بلغ من العمر أرذله نكسه
 الله في الخلق. أفلا يعقلون؟

وكذلك الرسالة من الله وهي ليست شعراً، فالله لم يعلم
 نبيه شعراً ولا ينبغي له - فالشعر يحتوي على ثقافة باطلة
 وغامضة، وهي تبرير وتكريس للواقع الفاسد، بينما الكتاب
 بخلاف ذلك كله - فما جاء الرسول إلا بالذكر الذي تصدقه
 الفطرة والعقل، وقرآن مبين واضح لا غموض فيه، وهو نذير
 لمن كان له قلب حي فهو تحد للفساد والطغيان، وهو بالتالي
 حجة على الكافرين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا
 الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا ﴿٦٨﴾ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا
 تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٧٠﴾ اضْلَوْهَا الْيَوْمَ
 بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا
 أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَوْ نَشَاءُ
 لَطَمَسْنَا ﴿٧٣﴾ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٧٤﴾

(١) جبلاً: خلقاً.

(٢) لطمسنا: أي لأعميناها، يقال طمس على عينه إذا محاه حتى لم
 يبق منها أثر.

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ^(١) عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾.

متى كان عهد الله لبني آدم ألا يعبدوا الشيطان؟

حينما نشر الله ذرية آدم في صورة (ذر) وقال لهم: ألسنت بربكم؟ فقالوا: بلى، أخذ منهم عهداً بعبادته، ورفض الأنداد من دونه.

وهكذا عندما فطرهم على معرفته، وأودع ضمائرهم عقولاً تهديهم إلى ربهم.

ثم بعد ذلك بعث إليهم رسله منذرين ومبشرين، يستأدونهم ميثاقه، ويستثيرون عقولهم بالتذكيرة به سبحانه، وكان في ذلك عهد الله إلى بني آدم بعبادته، وترك عبادة الشيطان، ولكن هل يمكن أن تجتمع عبادة الله مع عبادة الشيطان؟

كلا، فلا بدّ من رفض الشيطان لتتم عبادة الرحمن يقول ربنا:

(١) لمسخناهم: قلب الصورة إلى خلقية مشوهة كما المسخ إلى قردة وخنزير.
(٢) سورة يس، الآيات ٦٠-٧٠.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾.

أين هو الشيطان؟ إنه يجري مع ابن آدم مجرى الدم، ولكن القلب ينتبه بإذن الله وبما ألهمه الرب من فجوره وتقواه إلى وجوده ويميز وسواس الشيطان عن وحي العقل.

وعندما يعقد الإنسان العزم على محاربة الشيطان يتميز في قلبه أكثر فأكثر نداء الغواية عن فطرة الهداية.

ثم يأتيه الوحي عبر رسل الله ورسالاته لتتم الحجة عليه، فإذا بنداء الرحمن في قلبه يلتقي بندائه على لسان النبي وكتاب الله الذي أرسل به.

وهكذا يمتلك كل شخص مقياسين لمعرفة الشيطان:

• **الأول:** ما بقلبه من العقل.

• **والثاني:** ما أوحى به الرسل.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(١) يسعى الشيطان لخداع البشر بآته صديقه، وأن ما يشير إليه من الضلالة محض نصيحة. وقد يسترسل البعض معه بحجة أنهم خدعوا به، ولكن ربنا يقول: إنه عدو واضح، ولا عذر لأحد في اتباع عدوه، إلا إذا خدع نفسه.

(١) سورة يس، الآية ٦٠.

وسر عداوته أنّه يأمر بما يعلم الإنسان أنّه مضر؛ أو لا يأمر بالإسراف والتبذير، وبالفحشاء والمنكر، وبالاعتداء والظلم والبغي، مما يستقبحه البشر؟! لا أقل عندما يصدر من الآخرين، ومما يرفض أي عاقل نسبته إليه.

كلنا نعرف أنّ مآسي البشرية آتية من الظلم والعدوان والاستئثار والبخل والكسل والاختلاف، ونحن جميعاً نعرف أنّ ذلك هو من وحي الشيطان، أفلا نتخذه عدواً؟!!

١٢

أليست طاعة الشيطان عبادة له؟

عبادة الشيطان لا تعني السجود له، إنما طاعته بوعي، والتسليم التام لإغوائه، وتتجسد عبادة الشيطان في طاعة أوليائه من سلاطين الجور، وطغاة السلطة والثروة.

يقول الفخر الرازي في قوله: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ «معناه: لا تطيعوه، بدليل أن المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب بل الانقياد لأمره والطاعة له، فالطاعة عبادة.

لا يقال: فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمراء حيث أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١) لأننا نقول: طاعتهم إذا كانت بأمر الله لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له.

وأضاف: «وإنما عبادة الأمراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله

فيه»^(٢).

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ٢٦، ص ٩٦.

رفض عبادة الشيطان تهيؤ لعبادة الله، بل مجرد الكفر بالأنداد عبادة الله، كما أنّ من ضيع عبادة الرحمن وقع في شرك الشيطان، لذلك قارنت الآيات بين رفض هذه والالتزام بتلك، كقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾^(١).

وهنا يقول ربّنا: ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٢)، واستقامة الصراط نابعة من أنّ الله الذي رسمه لنا تعالى عن الميول التي تضلل البشر يميناً ويساراً، وعن الجهل الذي يتطرف صاحبه ناحية الإفراط أو التفريط.

ومن أبرز مظاهر الاستقامة في الصراط أنّ المؤمنين مجدون على السير فيه، متحدّين ضغوط الهوى والشهوة والسلطة والثروة والتزييف والتليس بتوفيق ربّهم.

هل هناك من فرق بين القويم والمستقيم؟

ولعل الفرق بين القويم والمستقيم يكمن في أنّ المستقيم يوحى بأنّ صاحبه يستقيم عليه متحدّياً عوامل الانحراف. وعبادة الله تعني طاعته، وطاعته لا تتجزأ، فمن صلى دون أن يؤتي الزكاة، أو خضع للإسلام في شؤونه الشخصية دون

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة يس، الآية ٦١.

نظامه الاقتصادي والسياسي، فإنه لا يعبد الله، بل إنه يعبد الشيطان.

إن جذر الشرك بالله هو الاستسلام أمام الضغوط، وإنما المؤمن الذي يتحدى الضغط، أما من جعل القرآن عذيق فقال: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وأراد أن يؤمن فقط بما يتفق ومصالحه، وأما عندما تعارض مصالحه يذهب معها فإنه السلوك الشركي الذي يجاربه القرآن.

فالقرآن لا يواجه إلا قليلاً أولئك الذين يكفرون بالدين رأساً، وإنما يحادد في الأكثر أولئك الذين يشركون بالله، فيخضعون لشهواتهم وسلاطينهم والمترفين، ويخدعون أنفسهم بعبادة الله فيما لا تنافي ومصالحهم وشهواتهم وكبرائهم.

١٣

العلم بالحق معيار الطاعة والاتباع

قال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ إنَّ مقياس الطاعة والتقليد هو العلم، فإذا كنت أنا أعلم منك فلا بد أن تكون أنت الذي تطيعني وليس العكس! ﴿فَأْتَيْعَنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾^(١) واجه إبراهيم عليه السلام عمه بهذه الشجاعة، حيث طلب منه أن يتبعه لأنه يمتلك العلم، وهذه إشارة بأن الاعتبار الأول في القيادة العلم، وليس شرطاً عمر القائد أو منزلته.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾^(١) عرض إبراهيم عليه السلام على عمه في البداية أن لا يعبد الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، وهنا يقول له: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾، فالشيطان هنا هو الذي يتجسد لهم على صورة صنم، أو على شكل وساوس نفسية

(١) سورة مريم، الآيات ٤٣-٤٤.

فيزين لهم عبادة غير الله، ومادام الشيطان عصياً لله، فهو - بطبيعة الحال - لا يهدي إلى سبيل الرشاد، بل يقود الناس على ما هو عليه من العصيان.

لماذا وضع الله كلمة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في مقابل ﴿الشَّيْطَانِ﴾، ولم يضع مثلاً (الرب)؟ ربّما لكي يوضّح حقيقة هامة، وهي أنّ الشيطان هو حالة ضدّ الرحمة ونقيض لها.

وعموماً فليس المقصود من عبادتهم الشيطان مجرد عبادة الصنم الذي لا يضرّ ولا ينفع، بل المقصود أيضاً عبادة الشيطان المتمثل في الطواغيت أو سدنة الأصنام الذين يتتبعون مباشرة من عبادة هؤلاء.

١٤

إنّما الذين يعقلون ينتفعون بالتجارب

عندما يتعظ المرء بتجارب غيره يهتدي إلى الطريق، وإنّما ينتفع بها من يعقلها ويجعلها وسيلة لإثارة دفائن عقله، وكوامن فطرته.

وإنّ من أظهر الحقائق التي يعقلها من شاء الهدى هي: أنّ بعض الناس في ضلال، فأنى ذهبت، وأي شخص سألت، قال لك: إنّ بعض الناس على خطأ، ولكن لا تقودهم هذه الحقيقة إلى معرفة حقيقتين أخريين هما:

- **أولاً:** إنّّه كما أضل الشيطان كثيراً من الناس كذلك يضلنا فلنحذر منه.

- **ثانياً:** ماذا كانت عاقبة الضالين؛ أوليس الهلاك؟! فلماذا لا نعتبر بذلك؟!

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ فإذا كان الشيطان قد

نجح في إضلال خلق كثير منكم فلماذا لا يحذر منه؟!

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾^(١) فهذا فريق أضلّه الشيطان، وهداه إلى سبيل البوار، وأهلكه أمام أعينكم، ثم لم يصبح عبرة لفريق آخر، وهكذا استمر الشيطان يضل منكم فثاماً بعد فثام، دون أن يعقل اللاحقون، ويعتبروا بمصير الغابرين. بينما كان مقتضى وجود العقل عند البشر هو أن يستفيد منه في تحديد طريق النجاة، وتجنب سبل الهلاك.

(١) سورة يس، الآية ٦٢.

١٥

بالتمسك بالوحي نتحدى كيد الكافرين

لأن عاقبة الكفار الدمار فلا بدّ من مواجهة إغرائهم وإرهابهم، ولا يمكن ذلك إلا بالتمسك الشديد بالرسالة.

قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ لينظر المؤمن إلى الظواهر السياسية والاجتماعية من خلال بصائر الوحي، لكي لا يتأثر بها سلبياً، وليطبق منهاج الرسالة بدقة حتى يمكنه الله في الأرض، لأنّ كلّ بند من بنود الشريعة قوّة واقتدار، وليكن واثقاً من سلامة خطه فإنّ الثقة بالنصر طريق إليه ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٤٣﴾.

وليس الشرف في أموالهم ومناصبهم، وإنما هو في الوحي الذي يعبق ذكر المتمسكين به في كلّ أفق ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، لقد ذهب أصحاب الأموال، وأصبحوا أحاديث يعتبر بهم المعتبرون، بينما بقي ذكر أصحاب الرسالة على كلّ شفة وعلى امتداد العصور.

بلى، إن أصحاب الرسالة مسؤولون قبل غيرهم عنها، لأنها نزلت في بيوتهم فهم أحق بها وأهلها ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٤٤).

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ قال: «الذِّكْرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ أَهْلُ الذِّكْرِ، وَهُمْ الْمَسْئُولُونَ» (١).

ولا يجوز الاستسلام لأهواء المترفين أو الطغاة، لأن في ذلك شركاً برب العزة. وقد جاءت الرسالة لتطهير النفوس من الشرك، وتطهير المجتمع من القيادات الشركية، فكيف تقبل بهم اليوم شركاء في السلطة ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٤٥) (٢) كلا، إنما هو إله واحد، وما جعل الله لرجل من قبلين في جوفه يخضع بأحدهما لربه وبالثاني لأصحاب الثروة أو السلطة.

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٧٥.

(٢) سورة الزخرف، الآيات ٤٣-٤٥.

١٦

عبادة الله

عصمة من الشيطان وهداية إلى الله تعالى

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(١) إنَّ عبادة الله سبحانه وتعالى، والاتصال به عصمة للإنسان لتلايقع في حبائل الشيطان.

إنَّ عبادة الله هدى في البصيرة، وقوّة في الإرادة، وغوث في الكربة، والذين يكفرون بالله ولا يتمسكون بحبله فإنَّ الشيطان يضلهم بغروره، ويرهبهم بجيشه، ويشاركهم في الأموال والأولاد.

وهكذا لا يمكن لأحد أن يتخلص من براثن الشيطان، من دون الاعتصام بحبل الله المتين، وكما أن أمضى أسلحة إبليس الاستفزاز بالصوت، فإنَّ أعظم حصن للمؤمن هو الذي يقيه تضليل الناس.

(١) سورة الإسراء، الآية ٦٥.

وذلك ببصائر الوحي وضيء العقل، وهكذا تكون الصلاة والصيام وسائر العبادات وسيلة للتفكير السليم ومقاومة عوامل الانحراف الفكرية. ويفسر هذه الآية قوله سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾^(١).

مشيئة الرب تقهر مكر الشيطان

من الطبيعي جداً أن إرادة الشيطان لا تستطيع أن تقف أمام مشيئة الله، لأن وعد الله هو الحق وإن يعد الشيطان إلا غروراً، وقد وعد الله عباده بأنه وكيلهم في صرف الشيطان عنهم، وتقطيع مصائده وهدم مكائده، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾^(٢).

إن مقاومة أسباب الانحراف في النفس تسير جنباً إلى جنب مع التيار العام للخلق والفطرة والذي تمثله سنن الله وقوانين الخلق، أمّا الانحراف فهو السير ضدّ هذا التيار، فلذلك فإنّ الانحراف يحمل في جوفه عوامل انهياره، حتى لو تذرّع بالأساليب الملتوية من إرهاب أو إغراء.

(١) سورة النحل، الآيات ٩٨-١٠٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٦٥.



الفصل السابع:

بالأنبياء نقتدي في تحدي الشيطان



خلاصة الفصل السابع

إنّ كون الإنسان من المؤمنين لا يعني أنّه لا يتعرض إلى وساوس إبليس وضغوطه، وحتى الأنبياء عليهم السلام تعرضوا لضغوطه ومحاولاته الدائمة للإغواء، إلا أنّهم لم يستجيبوا له ولو ألحق بهم الأذى والمشقة، وهكذا كانوا قدوة للبشرية. إنّ السبب في ثبات شخصية المتقين واستقامتها أنّهم يستمدون مقوماتها من الرسالة الإلهية الثابتة لا من الظروف والعوامل المادية المتغيرة.

في الحياة سنن وقوانين تسير وفقها الحياة، ومن يحاول تجاوزها أو عدم الاهتمام بها فإنّ محاولاته العبثية هذه لن تجدي نفعاً، ومن هذه القوانين قانون الابتلاء.

من أهم القضايا التي كررها القرآن الكريم وأكد عليها

هي قضية القدوة، والهدف من ذلك هو التأسي بهم من أجل جبر ضعف الإنسان عندما يتعرض لضغوط الحياة، وبالتالي يعيش الاستقامة.

ليس الهدف من القصص القرآنية مجرد إضافة معلومات تاريخية لتسلية الإنسان، بل الهدف منها هو أخذ العظة والعبرة وتطبيقها في الحياة بشكل دائم.

الطريقة الإلهية التي تضمن استمرار الإنسان واستقامته في الطريق تتمثل سنة الجزاء التي بينها الربّ تبارك وتعالى في كتابه الحكيم.

المؤمن ينظر للحياة بنور الله، فهو لا يضره إن فقد كل نعيمها وبقي له الإيمان، كما لا يجد لها طعمًا لو جمعت له لذاتها ولكنه فقد جذوة الإيمان من قلبه وعمله.

ينبغي للرساليين أن ينظروا في تاريخ قادتهم وإخوانهم الذين سبقوهم، ويلاحظوا معاناتهم واستقامتهم لله، فإن ذلك يزيدهم إيماناً بخطهم الرسالي، وثقة بأنفسهم وتحركهم، واستقامة على الطريق.

١

كلمات النجاة

وانتصار الإنسان على الشيطان

في مواجهة الصراع بين البشر بعضه مع بعض، وفي مواجهة الطبيعة الشريرة المدعومة بإبليس في داخل النفس البشرية، يُصاب الإنسان بالضعف والجهل. وهنا تسعفه رسالات الله بالهدى، فمن تمسك بهذا الهدى نجا، ومن لم يتمسك ضل ضلالاً مبيئاً.

أمّا أبونا آدم ﷺ فقد استمسك به جيداً مما يبشر بأن المطاف سينتهي بانتصار الإنسان على طبيعته الشريرة بفضل هدى الربّ سبحانه ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

ماذا كانت تلك الكلمات لعلها كانت رسالة الله إلى آدم حسب حاجاته وحاجات مجتمعه الناشئ، وفي النصوص الماثورة: إنها كانت أسماء النبي محمد ﷺ وعترته حيث دعا بهم آدم ﷺ ربّه فاستجاب له دعاءه.

(١) سورة البقرة، الآية ٣٧.

٢

الأنبياء ﷺ قدوة البشرية في تحدي ضغوط إبليس

يمكن للشيطان أن يمس الإنسان بالسوء في جانبي الحياة المعنوي والمادي، ولكن ذلك لا يكون بالجبر والإكراه، لأنَّ البشر حر ومختار، إنَّما يضغظ عليه وقد يمسه من ذلك شيء من التعب والألم.

وإذا تحدى الإنسان ذلك واستقام رغم المشقة فإنَّه ينتصر على إبليس لأنَّه كما وصفه القرآن: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾^(١).

وفي موضع آخر تنقل لنا الآيات تصريحاً عن الشيطان نفسه، تقول الآية: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي

(١) سورة النحل، الآيات ١٠٠-١٠١.

عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾.

ورد عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «قَالَ إِبْلِيسُ: خَمْسَةٌ أَشْيَاءَ لَيْسَ لِي فِيهِنَّ حِيلَةٌ، وَسَائِرُ النَّاسِ فِي قَبْضَتِي، مَنْ:

١. اِعْتَصَمَ بِاللَّهِ عَنِ تَيْبَةِ صَادِقَةٍ وَاتَّكَلَ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ.

٢. وَمَنْ كَثُرَ تَسْبِيحُهُ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ.

٣. وَمَنْ رَضِيَ لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ بِمَا يَرْضَاهُ لِنَفْسِهِ.

٤. وَمَنْ لَمْ يَجْزَعْ عَلَى الْمُصِيبَةِ حِينَ تُصِيبُهُ.

٥. وَمَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ وَلَمْ يَهْتَمَّ لِرِزْقِهِ» (٢).

إنَّ كونَ الإنسانِ من المؤمنين لا يعني أنَّه لا يتعرض إلى وساوس إبليس وضغوطه، وحتى الأنبياء عليهم السلام تعرضوا لضغوطه ومحاولاته الدائمة للإغواء، إلا أنَّهم لم يستجيبوا له ولو ألحق بهم الأذى والمشقة، وهكذا كانوا قدوة للبشرية. قال بعض المفسرين (كما نقل الرازي في تفسيره الكبير): إنَّ

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٢.

(٢) الخصال، ج ١، ص ٢٨٥.

أنبياء الله أرفع من أن يمسهم الشيطان بالنصب والعذاب^(١).
 والحقيقة أن هذا الأمر جائز في مجال الامتحان لأنهم ﷺ
 بعثوا قدوات للبشرية، وليس صحيحاً أن نبعد النظرة الواقعية
 عن حياتهم، فنؤول الآيات في ذلك إلى غير مضامينها. فننفي
 تعرض يوسف ﷺ للسجن، وموسى ﷺ للإهانة،
 ونبينا ﷺ للأذى، حتى قال عن نفسه: «مَا أُؤْذِي نَبِيٍّ مِثْلَ مَا
أُؤْذِيْتُ»^(٢) مع أن ذلك هو من صميم حياتهم، وعنوان عريض
 في تاريخهم الرسالي، باعتبارهم أنبياء!

(١) راجع تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٢٠٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ٥٥.

٣

لماذا الأنبياء ﷺ كانوا الأولى بالبلاء؟

ولو راجعنا آيات القرآن والأحاديث لوجدناها تؤكد على أن الأنبياء ﷺ هم الأولى بالبلاء، بل إنهم لم يصلوا إلى هذا المقام الرفيع إلا من خلاله، وقد روي عن الرسول ﷺ وقد سئل: أي الناس أشد بلاءً؟ فقال ﷺ:

«الأنبياء، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ»^(١).

نعم، إن الشيطان لا يتسلط على عقول الصالحين وقلوبهم، أما الجوانب المادية من حياتهم فهو قادر على سلبهم إياها لو أراد الله امتحانهم فيها، كما ابتلى في ذلك نبيه أيوب ﷺ.

قال الإمام الصادق ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْتَلِي الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ بَلِيَّةٍ، وَيُمِيتُهُ بِكُلِّ مَيْتَةٍ، وَلَا يَبْتَلِيهِ بِذَهَابِ عَقْلِهِ، أَمَا تَرَى أَيُّوبَ كَيْفَ سَلِطَ إِبْلِيسَ عَلَى مَالِهِ، وَعَلَى وُلْدِهِ، وَعَلَى أَهْلِهِ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ، وَلَمْ يُسَلِّطْ عَلَى عَقْلِهِ تَرْكَ لَهُ لِيُوحِدَ اللَّهُ بِهِ»^(٢).

(١) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٥٥.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٢٥٦.

والقرآن - في سورة ص وغيرها من السور - يدعو النبيّ الأكرم ﷺ، وكلّ مؤمن يسير في خطه إلى تذكر تلك الأحداث والمواقف من تاريخ الرسل والرسالات، وأن تكون حاضرة في ذهنه أبداً ليستعين بذكرها على مواجهة مصاعب الحياة ومشاكلها من أجل الاستقامة في طريق ذات الشوكة.

الأنبياء ﷺ يتحدون الشيطان

قال الله تعالى: ﴿وَأذْكَرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْ مَا سَنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبِي وَعَذَابِي﴾ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا^(١) فَاصْرُبْ بِهِ وَلَا تُحْنَثْ^(٢) إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَأذْكَرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأذْكَرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَا بِ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ^(٣) ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٤﴾

(١) ضغثاً: ملاء الكف من الشماريخ والحشيش.

(٢) ولا تحنث: الحنث هو نقض العهد المؤكد بالهلف.

(٣) أتراب: أقران على سن واحد ليس فيهن عجز ولا هرمة، وقيل أمثال في الحسن ومقدار الشباب، وقيل أتراب في أعمار أزواجهن.

(٤) سورة ص، الآيات ٤١-٥٤ .

في عدة مواطن من القرآن تعرضت الآيات لقصة أيوب عليه السلام بمناسبة الحديث عن الصبر (الجانب المعروف من حياته عليه السلام)، حتى لقد شاع المثل «صبر أيوب»، أمّا في الآيات السابقة فإنّ القصة تأتي في سياق الحديث عن العلاقة السليمة بالسلطة والثروة والعافية، هذه النعم التي ينبغي أن لا تستعبد البشر، فلا يستبد به الغرور إذا رزق منها شيئاً، ولا يقتله اليأس إذا زويت عنه.

وما تلتقي فيه قصة سليمان وقصة أيوب عليه السلام، أنّهما تهديانا إلى مثالٍ رائعٍ لتجسيد (النفس الربّانية)؛ التي لا تبطر بالنعمة والملك كنفس سليمان عليه السلام، ولا تياس إذا فقدت متع الدنيا كنفس أيوب عليه السلام.

وبالرغم من أنّ هذين المثليين من حياة شخصيتين إلا أنّهما -في الواقع- شخصية واحدة، حيث المؤمن هو الذي يتعالى على زينة الدنيا متطلعاً إلى رضوان ربّه، فيشكر حينما يظفر بها، ويصبر حينما تفوته.

لقد كان أيوب عليه السلام ذا مال وأهل كثير وسمعة طيبة بين الناس، وهو يُسخّر كلّ ذلك من أجل عمل الصالحات، فإذا به يفقد ماله وأهله، ويصاب في جسده بمرض فتركه كلّ من حوله، ولم تبقّ معه إلا زوجته الوفية (رحمة بنت يوسف بن يعقوب عليه السلام)، والتي ضربت مثلاً في الصبر مع زوجها

والوفاء له، إذ كانت تعمل في البيوت وتخدم الناس لتأتي له بالطعام والشراب.

إِلَّا أَنَّهُ ﷺ بقي صابراً شاكراً لله على النعمة، وما زاده الابتلاء إلا صبراً، ورجاءً للفضل في الدنيا والآخرة، وهكذا يكون المتقون كما وصفهم سيدهم عليّ ﷺ فقال: «تَزَلَّتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ»^(١).

ولعل السبب في ثبات شخصية المتقين واستقامتها أنهم يستمدون مقوماتها من الرسالة الإلهية الثابتة لا من الظروف والعوامل المادية المتغيرة.

أمّا زوجة أيوب ﷺ الوفية - والتي لم تكن بعصمة الأنبياء مع مكانتها وإيمانها - فقد جاء لها إبليس متمثلاً في هيئة البشر، وقال لها: إنني طيب ماهر وأستطيع أن أداوي زوجك ولكن بشرط واحد، هو أن يقول لي بعد شفائه إنني شافيته، فقبلت جباراً في زوجها النبي، فجاءت مسرعة وأخبرت أيوب بالأمر فغضب عليها، وحلف يمينا أن يضربها مئة جلدة.

وهكذا أتم أيوب ﷺ امتحانه ودعا ربّه فاستجاب له، وخفف عن زوجته حين أمره بأن يأخذ ضعفاً ويضربها به، وأعاد عليه أهله وماله ومكانته، وأبقى ذكره لنا مناراً وهدى.

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٣.

٥

واذكر عبدنا أيوب

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ الذي كان في نعيم من الدنيا، ثم انتقل منه إلى الفقر والمرض، لكنّه استقام بعبوديته لله ولم يكفر، لأنّه كأبي مؤمن مخلص ينظر للحياة بنور الله، فهو لا يضره إن فقد كل نعيمها وبقي له الإيمان، كما لا يجد لها طعماً لو جمعت له لذاتها ولكنّه فقد جذوة الإيمان من قلبه وعمله. وقد تجلت عبودية أيوب عليه السلام في الغنى بشكره، وفي الفقر بصبره واستقامته.

قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيُّ مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِئُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾^(١) أي اذكر من حياة أيوب هذا الموقف العظيم حين دعاربه في الضراء، وهذا الموقف العظيم لأنّ من الصعب على الإنسان وهو تتوارد عليه الضغوط والمشاكل من كلّ جانب أن يخلص توجهه إلى ربّه الأحد، فهو حينما يجد مس الفقر والجوع ربّاً يعتقد بأنّ الغني أو الحاكم هو الذي ينقذه من

(١) سورة ص، الآية ٤١.

هذه الورطة، وحينما يحوطه المرض غالباً ما يتصور بأن علاجه عند الطبيب لا بسببه، وهكذا يقع في الشرك، لكن أيوب عليه السلام تجاوز كل ذلك وحافظ على إيمانه وتوحيده الخالص.

العاقبة للمتقين الصابرين

ولم يكن البلاء الذي تعرض له أيوب عليه السلام بسبب ذنب عمله، فهو معصوم مطهر عن المعصية، وما أراد الله من ابتلائه: **«إِلَّا رَحْمَةً لِّيُعْظَمَ لَهُ الثَّوَابُ، وَجَعَلَهُ عِبْرَةً لِلصَّابِرِينَ، وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ فِي كُلِّ بَلَاءٍ نَزَلَ لِيَأْتِسُوا بِهِ بِالصَّبْرِ وَرَجَاءِ الثَّوَابِ»**^(١).

فلما أتم الله الابتلاء وأظهر صدق نبيه ومعدنه رفعه عنه، وعوضه عما فقدته بما هو خير منه ليعرفنا ربنا بأن العاقبة للمتقين الصابرين.

قال تعالى: **«ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ»**^(٢)
 قال الإمام الرضا عليه السلام: **«فَرَكَّضَ بِرِجْلِهِ، فَأَنْفَجَرَتْ لَهُ عَيْنٌ، فَدَخَلَ فِيهَا فَأَغْتَسَلَ، فَأَذْهَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ كُلَّ مَا كَانَ بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ»**^(٣).

وبالإضافة إلى إشفائه من الأمراض والعلل التي لحقت

(١) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٦٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٦٦.

بجسمه، ردّ الله عليه ما فقد من الأهل سواء الأبناء أو الأقرباء. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أي تضاعفوا فإذا كانوا عشرين صاروا أربعين، وقد حملت هذه الآية على عدة تفاسير:

• **الأول:** أن أهله ماتوا فأحياهم الله، وأضاف إليهم مثلهم.

• **الثاني:** أن الله عوضه عن مات من أهله بنين وبنات آخرين.

• **الثالث:** أن أهله تفرقوا عنه لما أصابه من بلاء، فجمعهم الله له وعطف قلوبهم عليه.

ولكن الروايات أكثر ما تؤكد على الرأي الأول، ومنها قول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ الَّذِينَ مَاتُوا قَبْلَ الْبَلِيَّةِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ أَهْلَهُ الَّذِينَ مَاتُوا بَعْدَ مَا أَصَابَهُمُ الْبَلَاءُ، كُلُّهُمْ أَحْيَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فَعَاشُوا مَعَهُ»^(١).

وبعد هذا البيان يصف الله رَفَعَهُ البلاء عن نبيه بأنه ذو فائدتين:

• **الأولى:** تعود على أيوب ذاته، وقد سَمَّاهَا رحمة فقال:

(١) تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٤١.

﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ لأيوب، وقد تمثلت هذه الرحمة في شفائه من المرض ورد ما فقده عليه.

• **الثانية:** تعود على عموم الرساليين والمتعقلين، وتمثل في العبر والدروس التي خلفتها القصة، قال تعالى:

﴿وَذَكِّرْ لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^(١).

وأهم درس يستفاد من هذه الآيات، هو أن لا نهزم أمام مشاكل الحياة وضغوطها، فإذا ما بقي الإنسان قوياً في نفسه، مقاوماً للآثار النفسية والروحية للأزمات والمشاكل، فإنه لن يتأثر بها.

وحتى يتمكن من ذلك يجب أن تكون علاقته بالحياة وما فيها قائمة على أساس أتمها وسيلة، لا علاقة شيءية باعتبارها هدفاً بذاتها، وأنه إذا لم يصل إلى أهدافه وطموحاته من طريق ما، فسوف يحصل عليها عن طريق آخر.

فإذا خسر وسيلته أو فشل فيها فليبق على أهدافه وإرادته، لأنه بجهدته وتحركه واستقامته قد يحصل على ما هو أفضل مما فقده، أو فشل المرات الماضية في تحقيقه والوصول إليه.

هذا إذا نظر للهزائم والنكسات التي تمر عليه في الحياة

(١) سورة ص، الآيات ٤٢-٤٣.

نظرة موضوعية، فهي حينئذ ستزيده قوّة ومناعة ضد الهزائم، وإصراراً على تسخير الحياة بصورة أفضل، وعلى ضوء التجارب الماضية.

وهذا أيوب عليه السلام يزداد إصراراً على خطه في الحياة، كلّما تفاقم بلاؤه، دون أن يستجيب إلى وساوس الشيطان، التي كانت تستهدف إضعاف إرادته والنيل من إيمانه وتقواه.

الوفاء بالعهد دلالة الإيمان الصادق

وحينما حلف أن يضرب زوجه الوفية مئة جلدة، أمره الله أن يجمع في يده مئة شمراخ من عذوق النخل، ويضربها ضربة واحدة، ليرفع عنه حرج الحلف بالله من جهة، وحتى لا تتأذى زوجه من جهة أخرى. ﴿وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْثًا فَأَضْرَبَ بِهِ﴾، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «فَأَخَذَ مِائَةَ شِمْرَاخٍ، فَضَرَبَهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً، فَخَرَجَ مِنْ يَمِينِهِ»^(١).

وقد استفاد الفقهاء من هذا التفسير للآية الكريمة وأحاديث أخرى حداً شرعياً قالوا فيه بأنّ الزاني إذا كان مريضاً لا يحتمل بدنه الجلد، فإنّه يضرب مئة جلدة بهذه الطريقة ويسقط عنه الحد المتعارف.

وفي الخبر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتى برجلٍ كبيرٍ قد استسقى

(١) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٤٤.

بطنه وبدت عروق فخذيته وقد زنى بامرأة مريضة فأمر رسول الله ﷺ فأني بعرجون فيه مائة شمرخ فضربه ضربة واحدة وضربها ضربة واحدة وخلّى سبيلهما وذلك قوله عز وجل:

﴿وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾^(١).

وبعد أن أمر الله أيوب عليه السلام بضرب زوجته - كما تقدم - أداءً للعهد الذي قطعه على نفسه أكد له ضرورة الوفاء بالالتزامات التي يتعهد بها المؤمن تجاه ربه فقال: ﴿وَلَا تَحْنُثْ﴾ أي لا تمل إلى الباطل بترك الوفاء بالقسم ومخالفته، إذ ينبغي للإنسان المؤمن أن يفي بالتزاماته وعهوده التي يقطعها مع ربه على نفسه، فكثير من الناس حينما يمرضون أو يتعرضون للمشاكل، يدعون الله أن يعينهم ويرفع عنهم ذلك، وينذرون تقرباً له أن لو رفعها سيفعلون كذا وكذا من الصالحات، ولكنهم بمجرد أن يصحوا أو تنتهي مشاكلهم يتناسون نذورهم وتعهداتهم.

ثم على الإنسان أن لا يتعهد بها لا يقدر عليه، حتى لا يلحقه الإثم بحنثه، فهذا الإمام علي عليه السلام يأتيه رجل حلف أن يزن الفيل فقال: «وَلَمْ تَحْلِفُونَ بِمَا لَا تُطِيقُونَ»^(٢).

(١) تهذيب الأحكام، ج ١٠، ص ٣٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٢٣، ص ٢٨٤ (... فَأَمَرَ الْإِمَامَ عليه السلام بِقَرْقُورٍ فِيهِ قَصَبٌ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ قَصَبٌ كَثِيرٌ، ثُمَّ عَلَّمَ صَبْغَ الْمَاءِ بِقَدْرِ مَا عُرِفَ صَبْغَ الْمَاءِ قَبْلَ أَنْ يُخْرَجَ الْقَصَبُ، ثُمَّ صَبَّ الْفِيلَ فِيهِ حَتَّى رَجَعَ إِلَى مِقْدَارِهِ الَّذِي كَانَ انْتَهَى إِلَيْهِ صَبْغَ الْمَاءِ أَوَّلًا، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُوزَنَ الْقَصَبُ الَّذِي أُخْرِجَ فَلَمَّا وُزِنَ قَالَ عليه السلام: هَذَا وَزْنُ الْفِيلِ).

وبعد ذلك يمتدح ربنا نبيه أيوب عليه السلام مركزاً على أمور في شخصيته:

- **الأول:** صبره، حيث عرّضه الله لألوان الابتلاءات فاستقام وتحمل، ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾.
- **الثاني:** إخلاصه في العبادة وتوبته، فلم يدعه البلاء للكفر بالله، ولا إلى عبادة غيره من الشركاء المزيفين. قال تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(١) يؤوب إلى الله ويتقرب إليه كلما ازداد بلاؤه.

(١) سورة ص، الآية ٤٤.

٦

القوة والرؤية

وسيلة تكامل الرساليين

بعد أن اختتم السياق قصة أيوب عليه السلام وصبره، واستقامته أمام كل الضغوط، شفعتها بالدعوة إلى ذكر بعض الأنبياء والتفكير في تأريخهم لأخذ العبر والدروس منه؛ إذ ينبغي للرساليين أن ينظروا في تاريخ قادتهم وإخوانهم الذين سبقوهم، ويلاحظوا معاناتهم واستقامتهم لله، فإن ذلك يزيدهم إيماناً بخطهم الرسالي، وثقة بأنفسهم وتحركهم واستقامة على الطريق.

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾^(١) ما يحتاجه الإنسان لبلوغ التكامل: القوة والرؤية؛ فبقوته يحقق ما يراه.

ويبدو أن ظاهر الآية يدل على وجود الأيدي (القوة) عند الأنبياء عليهم السلام، والأبصار (الرؤية) إلا أن باطنها القوة في الإيمان،

(١) سورة ص، الآية ٤٥.

والبصيرة في الدين، وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أولي القُوَّة في العِبَادَةِ وَالْبَصَرِ فِيهَا»^(١).

والجدير بالملاحظة أنّ ربّنا اكتفى هنا بالدعوة إلى تذكر هؤلاء العظماء، دون أن يعرض لنا مشاهد من حياتهم نعتبر بها، وهكذا في موارد كثيرة من القرآن، وذلك لأسباب:

• **الأول:** إنّ مجرد تذكر الرسالي بأنّه يتّمي إلى خط فيه هؤلاء العظماء الذين أسسوا تاريخ المجد للبشرية، هو أمر مفيد جداً، يعطيه الإيمان والثقة والاستقامة بالرغم من كلّ العوامل والظروف المضادة، إذ لا يشعر وهو يعاني من الرفض والحرب بشتى صورها بالضعف والوحدة، وهو يشعر بانتائه إلى هذا الخط، وإلى هذا التاريخ العظيم.

• **الثاني:** إنّ القرآن وحدة واحدة، ويكمل بعضه بعضاً، فيمكن لقارئه أن يجد في سورة الصافات تفصيل ما أشارت إليه سورة محمد عليه السلام، وهكذا بالنسبة لسائر السور مع بعضها، وعلينا ألا نكون من الذين اتخذوا القرآن عضيّن، فصارت نظرهم إليه نظرة تجزيئية، بل نسعى لمعرفة آيات القرآن من خلال نظر شمولي إليها جميعاً.

(١) تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٤٢.

٧

إِنَّ فِي قِصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

حينما يعرض لنا القرآن أجزاءً من حياة الأنبياء ﷺ حيث يبيّن لنا أهم ما يستفاد من حياتهم، فذلك لكي يؤكد بأنّ القصص التي يوردها ليست للتسلية أو مجرد زيادة المعرفة بالتاريخ إنّما هي للتعلم والموعظة.

يقول تعالى عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾^(١) حينما يقرأ الإنسان أو يسمع عن حياة العظماء، أول ما يجب أن يتطلع إلى معرفته هو سر عظمتهم، لا لكي يعرف وحسب بل لكي يأخذ بأسباب العظمة أيضاً، وسبب عظمة هؤلاء ورفعة شأنهم، هو الإيثار الخالص بالآخرة وتذكرها، الذي كان يزيدهم بعداً عن المعصية وقرباً إلى الطاعة.

أوليس ربّنا يقول في سورة المتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ

(١) سورة ص، الآية ٤٦.

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ.. ﴿١١﴾، ثم تتواصل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٢)، إنَّ العوامل الأخرى لم تتدخل في صياغة شخصية هؤلاء، إنَّما بقي ذكر الآخرة وحده خالصاً هو الذي يؤثر فيهم، فحينما آمنوا بالله تعالى، وتحملوا مسؤولياتهم الرسالية لم يتطلعوا إلى مطامع دنيوية من خلالها، ولو تداخلت عوامل أخرى في ذلك لم يرتقوا إلى هذه المنزلة من الإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٧﴾ أي اصطفاهم الله وكانوا من أفضل العباد عنده وأخلصهم له، لأنَّ الإخلاص نفسه على درجات.

ويجلِّد القرآن أسماء طائفة أخرى من الأنبياء عليهم السلام، ويدعوننا لذكرهم؛ قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٨﴾، وقد يكون السبب في ضم هؤلاء الثلاثة إلى بعضهم، وأولئك إلى بعضهم في الآيات المتقدمة، هو اختلاف منزلة الفريقين عند الله، وأنَّ الفريق الأول هم الأفضل وذلك بداليتين:

(١) سورة الممتحنة، الآية ٤.

(٢) سورة الممتحنة، الآية ٦.

- انتفاء إبراهيم عليه السلام إلى المجموعة الأولى وأفضليته ظاهرة لأنه من أولي العزم.
- السياق القرآني الذي وصف أولئك بالمصطفين أولاً والأخيار ثانياً، بينما اقتصر في مدح هؤلاء بكلمة **الأخيار**.

ويؤكد القرآن في نهاية الآيات الذي تحتم به القصص الهدف منها، وأهميتها لمن أراد التقوى. ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ ليشتمل على موعظة، يتفجع بها المؤمنون حيث يتأسون برسول الله. الأمر الذي يبلغ بهم الفوز والصلاح ﴿وَأَنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَآبٍ﴾، والمآب هو المكان الذي يستقر فيه الإنسان فهو يعود إليه كلما خرج منه، وهنا المآب بمعنى العاقبة والنهاية. وفي الآية تطمين للمؤمنين بأن الأمور في صالحهم مهما كان ظاهرها معاكساً.

وبيّن الله هذه العاقبة فيقول: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ وهي أفضل الجنان وفيها الخلود، ومآب المتقين إلى أفضل جنان الله في الآخرة. ﴿مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ حينما يقدمون عليها، والذي يفتح أبواب الجنة هو الإيمان والدعاء والعمل الصالح، فهي مفتحة للمتقين والمؤمنين فقط لا لغيرهم ممن لم يعملوا الصالحات.

قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ على الأرائك وهذه دلالة على مدى الاطمئنان الذي يلاقونه فيها، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ ﴿٥١﴾ جزاء لهم على إيمانهم وأعمالهم، وتعويضاً عما فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها في سبيل الله.

ومن أعظم ما يستلذ به المؤمنون في الجنة هم الحور العين، ولعل تركيز القرآن على ذكر الحور في حديثه عن ثواب المؤمنين، ينطلق من أن أصعب الفتن التي يتعرضون لها في الحياة الدنيا هي فتنة الشهوة الجنسية، ولكي يتجاوزوا إغراءها وضغطها يذكّرهم الله بعاقبة ذلك، حيث الظفر بالحوريات في الجنة. قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ ﴿٥٢﴾، فهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وينظرن إلى الأرض احتراماً لأزواجهن وتواضعاً. وهن أتراب أي المتماثلات سواء في السن، أو في كونهن أبقاراً غير مطموثات، ويقال فلانة ترب فلانة إذا أريد التساوي بينهما في العمر، وهكذا يتساوى عند المؤمن الميل إلى كل واحدة دون تفضيل واحدة على الأخرى لأنهن جميعاً القمة في الجمال والروعة.

ثم إن الله يدعونا للعمل والاستقامة في سبيله ولكن بطريق غير مباشر وذلك حينما يعدنا بالجزاء المتقدم الذكر، ﴿هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿٥٣﴾ ولأن المسافة بين هذا الثواب

والإنسان تتمثل في الإيمان وعمل الصالحات، فإن الآية تشتمل طبيعياً على الدعوة إلى ذلك، وقد استخدم القرآن كلمة الحساب تأكيداً لهذه الحقيقة، ولو كان الجزاء يحصل بلا عمل فلماذا الحساب إذن؟!

ويتميز نعيم الآخرة عن نعم الدنيا، ذاتياً بالتنوع والجودة، وزمناً بالخلود، فالنعمة تزداد وتتجدد دائماً. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾^(١)، وما دام الله باقياً فإن رزقه للمؤمنين لا ينتهي.

(١) سورة ص، الآيات ٤٧-٥٦.

- تقديم آية الله العظمى المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي... ٧
 مقدمة الكتاب..... ١٥

الفصل الأول:

- ١٩ **بدايات إبليس؛ لماذا وكيف تمرد؟**
-
- ٢١ خلاصة الفصل الأول
- ٢٥ ما الحكمة والهدف من خلق إبليس؟
- ٣٠ لماذا عصى إبليس؟
- ٣٣ بين سجود الملائكة وتمنّع إبليس
- ٣٥ أتى لمن خلق من طين أن يفتخر بنفسه؟!
- ٣٦ لماذا جاء الأمر بالسجود بعد نفخ الروح؟
- ٣٨ سجود الملائكة آية تسليمهم.....
- ٣٩ واستكبر إبليس وكانت قصة العصيان.....
- ٤٣ إبليس و المقاييس الشركية.....
- ٤٧ عاقبة التمرد على إرادة الربّ تعالى

- ٤٩..... الإنسان بين كرامة التوحيد وغرور الشيطان
- ٤٩..... إبليس يتحدى سلطان الحق
- ٥٠..... إبليس يتوعد بني آدم بالاحتناك
- ٥٣..... لا جبر على المعصية ولا حتمية للشر
- ٥٥..... كذلك تم طرد إبليس
- ٥٧..... كيف عاتب الربّ إبليس العاصي؟
- ٥٧..... أولاً: سحب المزايا
- ٥٧..... ثانياً: رجمه من قبل الله
- ٥٩..... ثالثاً: أبعاد اللعنة الأبدية التي لاحقت إبليس
- ٦١..... ما الحكمة من إعطاء المهلة لإبليس؟

الفصل الثاني:

قصة الشيطان مع الإنسان

٦٣

- ٦٥..... خلاصة الفصل الثاني
- ٦٧..... قصة الخلق الأول
- ٦٩..... ما هي مراحل خلق الله تعالى للإنسان؟
- ٧٧..... الطبائع البشريّة
- ٧٩..... كيف أصبح الجان عدواً للإنسان؟
- ٨٠..... والملائكة سجدت لأدم كلّهم أجمعون
- ٨١..... هل عذر إبليس كان أقبح من ذنبه؟
- ٨٣..... لماذا طرد إبليس من عند الله تعالى؟
- ٨٥..... ما الذي جرى في المرحلة الأخيرة من قصة إبليس؟

الفصل الثالث:

كيف ينخدع الإنسان بالشیطان؟

٨٩

- ٩١..... خلاصة الفصل الثالث
- ٩٤..... كيف يهوي البشر بسبب وساوس إبليس؟
- ٩٧..... أبعاد العجز عند الإنسان
- ٩٩..... غريزة حب الملك والخلود في البشر
- ١٠٠..... كيف كان كلام إبليس غروراً؟
- ١٠٢..... التوبة من الذنب من أفضل الصفات
- ١٠٤..... سيئات الاستكبار بين عبر الماضي ورؤية المستقبل
- ١٠٦..... ولاية الله أم ولاية الشيطان؟
- ١٠٨..... ولاية الشيطان عذاب وضلال عن رحمة الرب
- ١١٠..... تكريس ولاية الشيطان
- ١١١..... بالتمسك بالوحي نتحدى كيد الكافرين
- ١١٣..... (الغيبة) نموذج من ولاية الشيطان
- ١١٤..... لماذا الغيبة في بعض النصوص أشد من الزنا؟
- ١١٥..... مسؤوليتنا ردع المغتاب
- ١١٦..... اذكر أخاك إذا غاب بأحسن ما فيه
- ١١٧..... لماذا الغيبة إشاعة الفاحشة؟
- ١١٨..... ولا يغتب بعضكم بعضاً
- ١١٩..... ألسنا نكره أكل لحم أخينا ميتاً فكيف نغتابه؟
- ١٢٢..... هكذا نصح الإمام زين العابدين من اغتاب
- ١٢٢..... هؤلاء لا حرمة لهم!
- ١٢٣..... كلمة جامعة في الغيبة

الفصل الرابع:

خطوات الشيطان

١٢٧

- ١٢٩..... خلاصة الفصل الرابع
- ١٣١..... بين خطوات الشيطان وشرائع الحق.
- ١٣٥..... لكي نتحرر من أغلال الشيطان.
- ١٣٧..... ما هي القوانين الشيطانية وكيف نتحدّها؟
- ١٣٧..... أولاً: السوء
- ١٣٨..... ثانياً: الفحشاء
- ١٣٨..... ثالثاً: التبرير
- ١٣٩..... أتباع الآباء قد يكون خطوة من خطوات الشيطان.
- ١٤١..... المحرمات محدودة في القرآن
- ١٤٢..... عاقبة الذين يكتمون ما أنزل الله
- ١٤٣..... لماذا هذا العذاب لمن يكتم ما أنزل الله؟
- ١٤٤..... علماء السوء: تحريف الكتاب وتفريغ الدين من روحه.
- ١٤٧..... لا سلطان لإبليس على الإنسان
- ١٤٩..... محدودية سلطة الشياطين
- ١٥٢..... نتذكر خلق السموات والأرض
- ١٥٢..... لنطرد وساوس الشيطان
- ١٥٤..... الرزاق حقاً هو ربّ السموات والأرض
- ١٥٥..... أليس كلّ إنسانٍ مسؤولاً عن عمله؟
- ١٥٨..... ما هي خطط الشيطان؟
- ١٥٩..... أولاً: التضليل الإعلامي
- ١٦٠..... ثانياً: الإرهاب
- ١٦٠..... ثالثاً: إفساد الاقتصاد

- ١٦٠..... رابعاً: إفساد التربية
- ١٦١..... خامساً: الغرور
- ١٦٢..... تأخر الجزاء واغترار الإنسان
- ١٦٤..... الخمر والميسر وسيلة للشيطان للتفرقة
- ١٦٥..... الخمر والميسر ملهيان عن ذكر الله تعالى
- ١٦٧..... الشرك بين عبادة الملائكة وعبادة الشيطان
- ١٦٨..... الملائكة عباد مكرمون والشيطان رجيم ملعون

الفصل الخامس:

١٧١ دور إبليس في إغراء الإنسان

- ١٧٣..... خلاصة الفصل الخامس
- ١٧٥..... ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً
- ١٧٨..... كيف نتحدّى فتنة القوّة وزينة الحياة؟
- ١٧٩..... لماذا الشيطان قرين الذي يعيش عن ذكر الله؟
- ١٨١..... هكذا الشيطان يبعد تابعه عن سبيل الله!
- ١٨٤..... لماذا لا ينفع التبري يوم القيامة؟
- ١٨٥..... أو تهدي العمي؟ كلا كذلك كان في ضلال ميين
- ١٨٧..... كيف أخرج الشيطان بني آدم من الجنة؟
- ١٨٩..... التبرير وسيلة للشيطان
- ١٩٢..... ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني
- ١٩٤..... وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم
- ١٩٧..... دور إبليس في إغراء الإنسان
- ١٩٩..... الخمر و الميسر من عمل الشيطان
- ٢٠٠..... الإنسان بين السعي و التمني

- ٢٠٥..... كيف يضل الشيطان البشر بالأمانى؟
- ٢٠٦..... الشيطان بالغرور يعد ويمنى
- ٢٠٦..... وما العاقبة إلا جهنم!
- ٢٠٧..... عقبى الصالحين جنات خالدة
- ٢٠٨..... مراحل التسافل عند الإنسان
- ٢٠٩..... المرحلة الأولى: الافتتان
- ٢١١..... المرحلة الثانية: التربص
- ٢١٢..... المرحلة الثالثة: الارتباب والشك
- ٢١٣..... المرحلة الرابعة: الاغترار بالأمانى
- ٢١٧..... بنو آدم بين عدوين: الشيطان والنفس الأمارة
- ٢٢٣..... إبليس موكل بالنفس الأمارة بالسوء
- ٢٢٥..... هكذا كان سلطان إبليس على الذين يتولونه
- ٢٢٥..... حكمة تبديل الأحكام حسب المتغيرات
- ٢٢٦..... كذلك يثبت الله الذين آمنوا
- ٢٢٧..... من شبهات الشيطان
- ٢٢٨..... الرد على الشبهة
- ٢٢٩..... عاقبة أتباع الشيطان

الفصل السادس:

٢٣٣

كيف نتحدّى الشيطان؟

- ٢٣٥..... خلاصة الفصل السادس
- ٢٣٨..... في العلاقات البشرية بون شاسع بين محور القيم والمادة
- ٢٤١..... من هم شياطين الإنس؟ وما هي النجاة من شرهم؟

- ٢٤٣..... لنعرف وساوس إبليس حتى نتجنبها
- ٢٤٤..... كيف يستثير إبليس غرائز البشر؟
- ٢٤٨..... بالله نستعيد من الشيطان الرجيم
- ٢٥٠..... لماذا نستعيد بالله عند قراءة القرآن؟
- ٢٥٢..... التوكل حصن المؤمن من وساوس الشيطان
- ٢٥٣..... والآن كيف نتخلص؟
- ٢٥٥.. لكي نتحدى الشياطين نستعيد من نزغاتهم بالله السميع العليم
- ٢٥٧..... لا نجاهة من النار من دون إذن الربّ
- ٢٥٩..... بين الشفاعة الشركية والشفاعة المسؤولة
- ٢٥٩..... حقيقة الشفاعة ما هي؟
- ٢٦١..... لا شفاعة إلا بإذن الله تعالى
- ٢٦١..... الشفاعة الحقّ
- ٢٦٢..... الشفاعة؛ التسليم للولاية بعد الاستغفار
- ٢٦٤..... شفاعة الغرائق لا ترتجى
- ٢٦٧..... أصناف الناس وأقسام قلوبهم
- ٢٦٩..... وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم
- ٢٧١..... متى كان عهد الله لبني آدم ألا يعبدوا الشيطان؟
- ٢٧٤..... أليست طاعة الشيطان عبادة له؟
- ٢٧٧..... العلم بالحق معيار الطاعة والاتباع
- ٢٧٩..... إنّما الذين يعقلون يتنفعون بالتجارب
- ٢٨١..... بالتمسك بالوحي نتحدّى كيد الكافرين
- ٢٨٣..... عبادة الله عصمة من الشيطان وهداية إلى الله تعالى
- ٢٨٤..... مشيئة الربّ تقهر مكر الشيطان

الفصل السابع:

- ٢٨٥ **بالأنبياء نقتدي في تحدي الشيطان**
-
- ٢٨٧..... خلاصة الفصل السابع
- ٢٨٩..... كلمات النجاة وانتصار الإنسان على الشيطان
- ٢٩٠..... الأنبياء ﷺ قدوة البشرية في تحدي ضغوط إبليس
- ٢٩٣..... لماذا الأنبياء ﷺ كانوا الأولى بالبلاء؟
- ٢٩٥..... الأنبياء ﷺ يتحدون الشيطان
- ٢٩٨..... واذكر عبدنا أيوب
- ٢٩٩..... العاقبة للمتقين الصابرين
- ٣٠٢..... الوفاء بالعهد دلالة الإيمان الصادق
- ٣٠٥..... القوّة والرؤية وسيلة تكامل الرسلين
- ٣٠٧..... إن في قصصهم عبرة